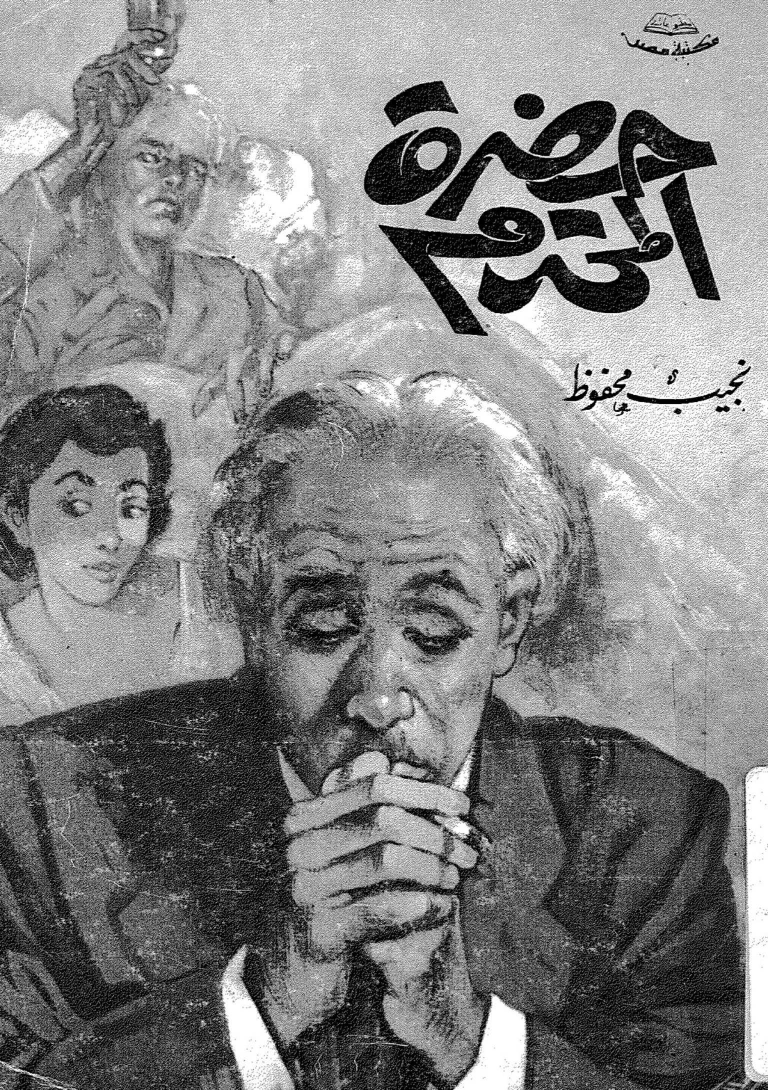

مكتبة مصر
حضرة المحترم
نجيب محفوظ



حَضرة المحترم



نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

حضرة المحترم

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



١

انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعانى والمثيرات لا مكانا محدودا منطويا فى شتى التفاصيل . آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم . لذلك اشتعل وجدانه وغرق فى انبهار سحرى . فقد أول ما فقده تركيزه . نسى ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الإله القابع وراء المكتب الفخم . وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست فى صميم قلبه حبا جنونيا ببهجة الحياة فى ذروتها الجليلة المتسلطة . عند ذاك دعاه نداء القوة للسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملى إرادته وتلبية لإغراء لا يقاوم خطف نظرة من الإله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحليا بكل ما يملك من خشوع .

وكان حمزة السويفى مدير الإدارة يتقدم الموكب الصغير فقال مخاطبا المدير العام :

ــ هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب السعادة ..

مر ضوء عينيه على الوجوه ، وعلى وجهه ضمنا ، فجال بخاطره أنه دخل تاريخ الحكومة ، وأنه يحظى بالمثول فى الحضرة . وخيل إليه أنه يسمع همهمة من نوع عجيب ، لعله يسمعها وحده ، ولعله صوت القدر نفسه . ولما استوفت الفراسة امتحانها الوئيد تكلم صاحب السعادة . تكلم بصوت بطىء وهادئ ومنخفض فلم يكشف عن شىء يذكر من جوهره . قال متسائلا :

ــ جميعهم من حملة البكالوريا ؟

فأجاب حمزة السويفى :

ـ بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة :

ـ العالم يتقدم ، كل شيء يتغيرها هى البكالوريا تحل محل الابتدائية .

اطمأنت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من الخشوع ، فقال الرجل :

ـ حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة .

وراح يراجع بيانا بالأسماء حتى سأل عن غير توقع :

ـ من منكم عثمان بيومى ؟

دق قلبه دقة قوية جدا . وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعا مؤثرا عنيفا . تقدم خطوة مطرقا وهمس : أنا يا صاحب السعادة !

ـ ترتيبك ممتاز فى البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك ؟

صمت . اضطرب . لم يدر فى الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب فى وعيه طيلة الوقت . وعنه أجاب مدير الإدارة كالمعتذر :

ـ لعلها ظروف يا صاحب السعادة !

سمع الهمهمة مرة أخرى ، سمع صوت القدر . ولأول مرة شعر بأن ثمة زرقة تخضب الجو ، وأن رائحة طيبة غريبة تجول فى المكان . ولم يحزنه أن يشار إلى « ظروفه » المعوقة بعد أن تقدس شخصه بعطف صاحب السعادة وتقديره . وقال لنفسه إنه يستطيع أن يحارب جيشا بمفرده فينتصر عليه . والحق أنه ارتفع وارتفع حتى غاص رأسه فى السحاب ، وثمل لدرجة العربدة الوحشية . أما صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذنا بالختام :

ـ شكرا ، ومع السلامة ..

وهو يغادر المكان قرأ فى سره آية الكرسى .

٢

إنى أشتعل يا ربى .

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة فى الأحلام . وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كمجموعة من نور باهر ، فاحتواها بقلبه وشد عليها بجنون . كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه فى هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة . أما على الأرض فقد تقرر إلحاقه بالمحفوظات . لم يهمه كيف يبدأ فالحياة بدأت من خلية واحدة بل من دون ذلك . وهبط إلى مقره الجديد وجناحاه يرفرفان ، يشق طريقه إلى بدروم الوزارة . طالعته قتامة ، ورائحة أوراق قديمة ، ورأى سطح الأرض فى الخارج عند مستوى رأسه من خلال نافذة مصفحة . وامتد البهو أمامه . تتلاصق على جانبيه دواليب شنن ، وصف طويل منها يشقه شقا طوليا . على حين استقرت مكاتب الموظفين فى ثغرات بين الدواليب . ومضى وراء موظف إلى مكتب يستعرض تجويفا كالمحراب فى الصدر جلس إليه رئيس المحفوظات . لم يكن أفاق من نفثة السحر المقدسة ، حتى الغوص فى البدروم لم يوقظه . سار وراء

الموظف بتشتته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه : اللا نهاية هى ما ينشد الإنسان .

وقدمه الموظف إلى الرئيس :

ـــ عثمان أفندى بيومى الموظف الجديد .

ثم قدم الرئيس إليه قائلا :

ـــ رئيسنا سعفان أفندى بسيونى ..

رأى فى الوجه قرابة طبيعية كأنما كان فى الأصل من مواليد حارته . وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعث ، وأحب أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى . ابتسم الرجل كاشفا عن أقبح ما فيه ، أسنان سود مثرمة ، وقال :

ـــ أهلا بموظفنا الجديد ، اجلس ..

وراح يقلب فى صور أوراق تعيينه ثم قال :

ـــ أهلا .. أهلا .. الحياة يمكن تلخيصها فى كلمتين ، استقبال وتوديع ..

وقال عثمان فى نفسه ولكنها رغم ذلك لا نهائية . وهفت عليه ريح خفيفة مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات فقال إنها لا نهائية ولكنها فى حاجة إلى إرادة لا نهائية كذلك . وأشار الرئيس إلى مكتب خال متآكل الجلدة منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال :

ـــ مكتبك ، تفحص الكرسى بعناية فإن أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة ..

فقال عثمان :

ـــ بدلتى قديمة جدا والحمد لله ..

فواصل الرجل تحذيره :

ـــ واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابا من دواليب شنن فقبل العيد الماضى طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر ..

وضحك حتى سعل ثم استدرك :

ـــ ولكنه لم يكن من نوع سام ..

فتساءل عثمان بقلق :

ـــ وكيف نفرق بين السام والغير سام ؟

ـــ عندك فراش المحفوظات فهو أصلا من أبو رواش وهى بلدة الثعابين ..

وتناسى ذلك واعتده مزاحا . وراح يلوم نفسه كيف فاته أن يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير العام ، كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه ، كيف لم يحاول أن يقف على سر السحر الذى يخضع به الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه . هذه هى القوة المعبودة وهى الجمال أيضا . هى سر من أسرار الكون . على الأرض تطرح أسرار إلٰهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة . إن الزمن قصير

بين الاستقبال والتوديع ولكنه لا نهائى أيضا . الويل للذى ينسى هذه الحقيقة . ثمة أناس لا يتحركون مثل سعفان أفندى بسيونى . الرجل الطيب التعس . إنه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئا . كذلك كان أبوه عم بيومى . ليس كذلك من مست النار المقدسة قلوبهم . هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهى متألقة عند صاحب السعادة المدير العام . هذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذلك . تلك هى سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الإلٰهية والكبرياء البشرى . ثامنة ... سابعة ... سادسة ... خامسة ... رابعة ... ثالثة ... ثانية ... أولى ... مدير عام . معجزتها تتحقق فى اثنين وثلاثين عاما ، وربما تحققت فى أكثر من ذلك . أما الساقطون فى وسط الطريق فلا حصر لهم . إن النظام الفلكى لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم .. والزمن يستكن بين يديه كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبؤ بغده . إنه يشتعل ، هذا كل ما هناك . ويخيل إليه أن النار المتقدة فى صدره هى التى تضىء النجوم فى أفلاكها . نحن أسرار لا يطلع على خباياها إلا خالقها .

وقال له سعفان أفندى بسيونى :

ـــ ستدرب أولا على الوارد فهو أسهل ..

ثم وهو يضحك :

ـــ على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل أو أن يحيك

لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والاكلبسات .

كل ذلك يسير ، أما العسير حقا فهو كيف نتعامل مع الزمن ..

٣

فى مسكنه ـــ حجرة وحيدة ومرافق ـــ يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته . إنه يعيش متفتح الحواس مرهف الوعى ليتزود بكل سلاح . ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه ـــ حارة الحسينى ـــ كأنها امتداد لروحه وجسده . حارة طويلة ذات منحنى حاد ، مشهورة بموقف للكارو ومسقى للحمير . البيت الذى ولد ونشأ فيه تهدم . وقامت موضعه باحة صغيرة لعربات اليد . قليل من مواليد الحارة من يبرحها بصفة نهائية إلا للقبر . يعملون فى مواقع كثيرة ، فى المبيضة .. الدراسة .. السكة الجديدة .. أو فيما وراء ذلك ، ولكنهم يرجعون إليها آخر النهار . ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس أو النجوى ، أصواتها مرتفعة جدا ، متوترة بين الحكمة والبدائية ، ومن بينها صوت قريب قوى خشن لم يخلخله الكبر ، صوت أم حسنى صاحبة البيت . إن أحلام الأبدية جد مرهقة ، ولكن ماذا كان بالأمس ، وماذا يكون اليوم ؟. خليق بمثله ألا يعرف المستحيل . وخليق به ألا يترك نفسه للتيار بلا خطة .

وخطة محكمة . كثيرا ما يحلم أنه يبول ولكنه يستيقظ فى اللحظة المناسبة ، فما معنى ذلك ؟. أم حسنى كانت صديقة لأمه وزميلة ومرشدة ، صديقة عمر طويل . كانت كلتاهما زوجة لسواق كارو ، وعاملة كادحة ، تكد بصبر النمل ودأبه سعيا وراء القرش ، تسند به زوجها وترم عشها . دلالة .. ماشطة .. خاطبة ، وغير ذلك . ماتت أمه وهى تعمل ، أما أم حسنى فما زالت تعمل بهمة عالية . وكانت أم حسنى أحسن حظا وأوفر رزقا فتجمع لديها من المال ما بنت به بيتها المكون من ثلاثة أدوار ، مخزن أخشاب أرضى ، وشقتين ، تقيم هى فى إحداهما وعثمان فى الأخرى . وابنها حسنى لم يخلف وراءه إلا اسمه أما شخصه فقد حملته أيام الحروب والمحن إلى بلاد نائية فاستقر فيها .

ألا يحق له أن يحلم ؟. إنه يحلم بفضل الشعلة المقدسة التى تتقد فى صدره ، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم أيضا . وألف أحلامه كما يألف الفراش والكنبة والسحارة والحصيرة ، وكما ألف الأصوات الحادة والمنغومة التى تند عن حنجرته فتردد أصداءها الجدران الراسخة القائمة .

ماذا كان بالأمس ؟. أراد أبوه أن يجعل منه سواق كارو مثله ولكن شيخ الكتاب قال له :

ـــ يا عم بيومى توكل على الله وأدخل الولد المدرسة الابتدائية ..

فذهل الرجل وتساءل :

ــ ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة ؟

فقال الشيخ :

ــ الولد ذكى وعاقل وربما رأيته يوما من رجال الحكومة ..

وقهقه عم بيومى غير مصدق فقال الشيخ :

ــ عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان . وتردد عم بيومى زمنا ثم تمت المعجزة . ونجح عثمان فى المدرسة نجاحا مذهلا حتى حصل على الابتدائية . تميز عن أقرانه الحفاة من أبناء الحارة ورأى بعينيه الحادتين أول شرارة مقدسة تنطلق من فؤاده النابض وأيقن أن الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللا نهاية . والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك فحقق من النجاح ما لم يصدقه أحد فى حارة الحسينى . ومرض عم بيومى مرض الوفاة وابنه فى السنة الثانية ، فندم الرجل على ما « فعله » بابنه وقال له :

ــ ها أنا أتركك تلميذا لا حول له ، فمن يسوق الكارو ، ومن يحفظ البيت ؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين . وضاعفت الأم نشاطها مؤملة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر ، أليس الله بقادر على كل شىء ؟! ولولا وفاة الأم بغير توقع لأكمل عثمان تعليمه فى المدارس العليا . وقد اشتدت لذلك حسرته ، وضاعف من حدتها اكتمال

وعيه بطموحه وبأحلامه المقدسة . ومقدسة عنده أيضا ذكرى والديه . وكل موسم يزور قبرهما . وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور فى العراء . وهو اليوم وحيد ، مقطوع من شجرة . قتل أخوه الأكبر — كان شرطيا — فى مظاهرة ، وماتت أخته بالتيفود فى مستشفى الحميات . وأخ آخر مات فى السجن . إنه يتذكر أسرته فيشقى بالتذكر ويرثى لوالديه ، ويقرن تلك الأحداث بدراما عليا يتطلع إليها باحترام ووجل ، فالمصائر تتقرر فى الحارة بفضل الإرادات المتصارعة والقوى المجهولة ثم تتقدس فى الأبدية . لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنه يعتمد فى النهاية على الله ذى الجلال . ولذلك أيضا فلا تفوته فريضة وبخاصة صلاة الجمعة فى جامع الحسين . وكإيمان أهل حارته لم يكن يفرق بين الدين والدنيا ، فالدين للدنيا والدنيا للدين ، وجوهرة متألقة مثل درجة المدير العام ما هى إلا مقام مقدس فى الطريق الإلٰهى اللانهائى . ولما كان يعيش بين زملائه بوعى يقظ لماح فقد التقط ما يهمه من المعانى والكلمات ، ثم عكف على دراسة خطة دقيقة للمستقبل ، ترجمها فى ورقة عمل ليذاكرها كل صباح قبل انطلاقه إلى العمل :

شعار للعمل والحياة

١ — القيام بالواجب بدقة وأمانة .

٢ — دراسة اللائحة المالية التى يشار إليها كأنها كتاب مقدس .

٣ ـــ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم.

٤ ـــ دراسة خاصة للغتين الإنجليزية والفرنسية بالإضافة إلى العربية .

٥ ـــ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .

٦ ـــ الإعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادى فى عملى .

٧ ـــ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .

٨ ـــ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذى شأن ، صداقة مفيدة ، زواج موفق من شأنه تمهيد الطريق للتقدم .

ولم يكن من النادر أن ينظر فى مرآة صغيرة معلقة بمسمار بين النافذة والمشجب ليتفحص منظره ، وليطمئن على نفسه من هذه الناحية ، لن يكون منظره عائقا فى سبيله على أى حال ، فهو قوى الجسم كأبناء حارته ، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق ، وبصفة عامة سيجد فى جسمه الصلاحية لملء أى مركز مهما جل شأنه .

وقال لنفسه مستمدا من طواياها القوة والتشجيع :

ـــ بداية لا بأس بها ، وطريق بلا نهاية ..

٤

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدسة أيضا ، وهو يهرع إليها بقلب مشغوف ، وبمرح من يتخفف من حمل الأيام بثقلها العتيد . هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الأثرى المهجور ، على أدنى سلمه يجلسان جنبا إلى جنب فى أحضان الأصيل اللا متناهية ، تترامى الصحراء أمامهما حتى سفح الجبل ، ويغنى الصمت بلغته المجهولة . سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفز ، سمرة موروثة عن أم مصرية وأب نوبى توفى وهى فى السادسة . زمالتهما القديمة فى الحارة تمتد أصولها فى الماضى البعيد حتى تتلاشى فى منبع الحياة نفسه . عندما ينظر فى عينيها النجلاوين الواسعتين أو يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحيوية فإنه يتلقى المثال المثير لفطرته الذى يبعث فى غرائزه اليقظة والابتهال . إنها قرينة طفولته فى الحارة وفوق السطح ، وزميلته فى الكتاب ، وبالرغم من أنها لم تتجاوز السادسة عشرة فهى معدودة ست بيت ماهرة ، وهى يد أمها الوحيدة بعد أن تزوجت أخواتها السبع .

ابتسمت سيدة . وجهها بسام دائما ، وعينها مشعة ، وأطرافها تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوترة ، وخصلات شعرها المموج الخشن ترقص فى تيار النسيم الجاف الهابط من الجبل . ومرفت من الصمت

المعذب قائلة :

ــ فرحت أمى بدخولك الحكومة ..

سألها فى دعابة :

ــ وأنت ؟

فتمادت فى ابتسامتها ولم تجب . أحاطها بذراعه ولثم بشفتيه الحادتين شفتيها المليئتين . لم يجر للحب ذكر بينهما ولكنهما يعربان عنه فى كل خلوة بالأحضان والقبل . وهى تشبع من نفسه جانبها المنهوم بالحياة فى بساطتها ومسراتها ، ويحبها بعقله أيضا لأنه يقدر مزاياها وإخلاصها ، ويشعر بتلقائية بأنها كفيلة بإسعاده .

ــ أصبحت موظفا ..

وشى صوتها بالإعجاب فقبلها مرة ثانية .

ــ لم يحظ أحد فى حارتنا بذلك ..

جميع أقرانه يعملون فى شتى الحرف . يرمقونه ــ إذا مر ــ بالإعجاب وأحيانا بالحسد . ما أجدره بأن يسر لولا شعوره الحاد القاسى بطول الطريق وعناده .

ــ أنت الأفندى الوحيد !

فقال بهدوء :

ــ لا قيمة لذلك خارج حارتنا .

ــ الخارج لا يهم ، أما حارتنا فهى حارة الكارو !

فقبلها للمرة الثالثة وقال :

ــ لا تتكلمى عن الكارو إلا بالاحترام ..

ــ صدقت ، أنت شهم ..

وقد قبض على أبيها فى المعركة التى قبض فيها على أخيه فدخل السجن ومات فيه بسببها ، ولكن تلك الأحداث تعد من الأمجاد التى يطيب بها ذكر الحارة . ولكن سيدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح . ولا جدوى من تجاهله فها هى تسأل :

ــ وماذا بعد ذلك ؟

إنه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد . ويعلم أيضا أن سعادته لن تقل عن سعادتها بحال إن لم تزد . إنه يحب هذه الفتاة كما تحبه ولا غنى له عنها . ولكنه يخاف . عليه أن يفكر ألف مرة . وليراجع ورقة العمل المريرة . ليتمل الحياة التى تقف أمامه مرحبة ومتحدية معا .

ــ ماذا تعنين يا سيدة ؟..

فأجابت معاندة فى خفة :

ــ لا شىء !

ــ لا يجوز أن ننسى أننا صغيران ..

ــ أنا ؟!

قالتها باحتجاج عذب أشارت به إشارة مليحة إلى أنوثتها

الصارخة .

فقال مداعبا :

ــ إنما قصدت نفسى ..

ــ أطلق شاربك فهذا ما ينقصك .

أخذ مزاحها مأخذ الجد وفكر بأن ذلك قد ينفعه حقا فى نضاله فمنذا الذى يتصور موظفا كبيرا بلا شارب ؟!

قال بهدوء :

ــ سأكمل تعليمى يا سيدة .

ــ هل ما زال ينقصك تعليم ؟

ــ الشهادة العليا .

ــ لماذا ؟

ــ مساعد لا بأس به للترقى .

ــ وهل يلزمك وقت طويل ؟

ــ أربعة أعوام على الأقل .

قرأ بتألم خفى الفتور فى عينيها وربما الخجل وشيئا من الغضب !

ــ وما ضرورة الترقى ؟

ضحك . لثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وبلكمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان العريس والعروس . لاحت ظلمات الليل فوق

— ٢٠ —

الجبل وترامى غناء من فونوغراف .

ــ الظاهر أن الترقى مهم أكثر مما تصورت ..

فتناول يدها بين يديه وغمغم :

ــ أحبك ، إلى الأبد ..

نطق صدقا . وبقدر صدقه اغتم وتألم وسخط على نفسه ، وقال إن تجربة الحياة عظيمة جليلة ولكنها مرهقة .

٥

وقف على قبرْ والديه الضائع بين قبور لا حصر لها وقرأ الفاتحة ، ثم قال :

ـــ يرحمكما الله رحمة واسعة ..

ثم ناجاهما بامتنان قائلا :

ـــ عثمان موظف محترم يخطو خطواته الأولى فى طريق عسير ولكنه مصمم على السير حتى النهاية .

ثم انحنى قليلا وقال بابتهال :

ـــ كل ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما ..

وتلا غلام ضرير بعضا من السور الصغيرة فنقده نصف قرش ، ورغم تفاهة المبلغ لم يخل من الضيق الذى يركبه عند الدفع . ولما ذهب الغلام عاد إلى مخاطبة والديه قائلا :

ـــ عهد الله أن أنقلكما إلى قبر جديد إذا حقق الله آمالى ..

ولم يكن لديه فكرة عما يبقى من الجثث فى مجرى الزمن ولكنه تخيل أن يبقى شىء على أى حال . وتذكر وهو يعجب لذلك سيدة فوضحت صورتها الباسمة أمام عينيه ، وخيل إليه أنها تتحفز لإطلاق ملاحظة حادة وصريحة وساخرة . انقبض قلبه وتوجع وهمس :

ـــ اللهم اهدنى سواء السبيل فكل ما أفعل من وحيك .

وعاش من جديد الأيام الأخيرة لأبيه . هذا أمر لا مفر منه . كان المرض والكبر قد أقعداه فكانت نزهته أن يفترش فروة أمام البيت ، لا يكاد يرى أو يسمع ، يتأمل عجزه ، يتأوه هاتفا :

ـــ اللهم لطفك ورحمتك ..

كان فى زمانه من رجال الحارة الأشداء . عاش حياة طويلة معتمدا على عضلات ذراعيه وساقيه ، يعمل بلا انقطاع ويعانى على المدى شظف العيش والفقر . قوة مهدرة تتغذى على لا شيء ويقهقه فى الملمات بلا معنى ولا سبب . ووجد ذات مساء ميتا حيث يجلس على الفروة فلم يدر أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقاه هو . أما أمه فكانت ميتتها أدعى للدهشة . كانت تغسل فانطوت على نفسها حتى تقوست وراحت تصرخ من شدة الألم . وجاءت الإسعاف فحملتها إلى قصر العينى وتقرر إجراء جراحة فى الأعور قتلت فى أثنائها .

أسرته ضحية فريدة للموت . شيء قال له فى باطنه إنه ربما بسبب ذلك سيعمر هو طويلا . واجتاحته موجة من الأسى . كل موت معقول بالقياس إلى موت أخيه الشرطى . رجل كالجمل يقتل بطوب الثوار . أى ميتة . لا يعرفهم ولا يعرفونه . إنه يقف من تلك الأحداث موقف المتفرج المتعجب . لا يفقه لها معنى على الإطلاق .

أجل عرف الكثير من مطالعة التاريخ . عرف التاريخ من أقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى . عرف الثورات . ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها . وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده إلى الميدان . ما أعجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم . لقد عاش حياته مطاردا بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتا لمد آفاق تفكيره إلى الخارج . انحصر فى الحارة بهمومها المجهولة من الجميع ، الوحشية ، القاسية ، المتلاحقة . واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا وإلـهيا فى آن لا علاقة له فى تصوره بالأحداث العجيبة التى تجرى باسم السياسة . قال إن حياة الإنسان الحقيقية هى حياته الخاصة التى ينبض بها قلبه فى كل لحظة ، التى تستأديه الجهد والإخلاص والإبداع . إنها مقدسة ودينية . بها تتحقق ذاته فى خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الإنسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا . إنهم يهتفون بغير ذلك أو بما يناقض ذلك ولكنهم مجانين مزيفون . ولذلك فإنه لم يغفر لنفسه أنه لم يملأ عينيه من حجرة المدير العام ، ولا من شخصه المتفرد الذى يحرك الإدارة كلها من وراء برافان . فى نظام دقيق وتتابع كامل يذكر الغافل بالنظام الفلكى وبحكمة السماوات .

تنهد بعمق .

قرأ الفاتحة مرة أخرى . قال مودعا :

ــ ادع لى ربك يا أبى .

ودار حول القبر الذى سقط شاهداه وتشقق ركنه ثم قال :

ــ ادعى لى ربك يا أمى .

٦

ما أعجب الفصول فى تعاقبها . إنه يعايشها من خلال عمله المتواصل . الشتاء فى الحارة فصل شديد القسوة ولكنه يحفز للعمل ، الربيع بخماسينه لعنة ، الصيف جحيم ، الخريف بسمة غامضة متألمة . إنه يواصل العمل بإرادة صلبة وشهوة نارية . ها هى كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة . لا ينام من الليل إلا أقله . يعانق الأفكار ويصارع الغموض ، وحتى النجاح لا يريد أن يقنع به وحده . ويوم الجمعة يخصص عادة للثقافة العامة الجديرة بالمديرين ومن فى خدمتهم . واهتم بالشعر خاصة ، حفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق فى الحفلات الرسمية . إنه لخسران فادح أن يفشل فى نظمه . ولكنه على أى حال خير طريق لإتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر فى النجاح المنشود . والأسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يحدثه بذلك . واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع

تلك المعارف مفيدة ، ولها وقتها الذى ترتفع فيه قيمتها فى بورصة المضاربات الديوانية ، فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف . أجل عليه أن يتزود من كل شىء نافع بطرف فمن يعلم ؟ وكان يقول إن حياته تيار غير منقطع ماض فى مجرى النور والعرفان ، يتكاثف بكل طريف ، ويتشعب فى مجالات الفكر ، تدفعه حرارة الإيمان والكبرياء البشرى الشريف ، ليصب فى النهاية فى الأعتاب الإلـٰهية .

أما راحة النفس فيحظى بها على سلم السبيل الأثرى . فى عناق الحب المشبوب . بين يدى الفتاة الجميلة المحبة . فى حضنها العذرى المشتعل . بلا تورط فى فعل أو قول . لكنه يتعلق به تعلقه بالحياة نفسها . آه لو كانت الحياة تقنع بالحب والسعادة اليسيرة . ومن شدة قلق سيدة تجاوزت تحفظها الفطرى . تمادت فى الإفصاح عن عواطفها الصادقة . كشفت عن لهفتها المحمومة . قالت له مرة بورع :

ــ لا حياة لى بدونك .

ولكن بدا قولها فاترا بالقياس إلى ما تمنحه شفتاها المليئتان . وقالت له مرة أيضا :

ــ أنت كل شىء ، ما مضى وما هو آت ..

وعيناها العسليتان تبعثان ألقا ناطقا بالوفاء والجزع والأشواق الصادقة . وفى غمار العناق الذائب فى الأنفاس المحترقة قالت متنهدة :

ــ ينقصنا شىء ..

فقال ببلادة وأنانية :

ــ حبنا الكامل لا ينقصه شىء !

فرفعت منكبيها محتجة ولكن بحذر من يرغب عن إحراجه ويستعين عليه بالصبر والإصرار ، ووجد أنه يعانى كبتا مرعبا سيرمى به مرة تحت رحمة المجهول . لذلك أذعن لإغراء زميل دعاه إلى زيارة لدرب البغاء الرسمى . وكابن من أبناء حارة الحسينى لم تعوزه الجرأة الكافية ، انطلق فى الدرب الذى يضيئه مصباحان غازيان متباعدان يغلفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته فى شبه ظلام مثير للشهوات . وقلب عينيه القلقتين حتى استقر على صيد . ويعقب ذلك عادة إكباب على طلب الغفران ، وعكوف طويل على الصلاة والعبادة . وهو ما يفعله عادة كلما واجه نواياه العميقة الخفية من ناحية سيدة . فإلى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشد من عذابات ضميره . وكان يختم لياليه الطويلة المرهقة فى إعياء نفسى شديد ، كالإغماء ، وأحيانا تبتل جفونه وهو لا يكاد يدرى .

وكان سعفان بسيونى رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمى بإعجاب وحذر . أعجب بجلده وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتح من بادئ الأمر إلى البكالوريا التى تميز بها وحده فى المحفوظات ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذى سيرفعه درجات جديدة من

الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » . وفطن عثمان إلى ذلك فى حينه ولكنه طمع فى طيبته الفطرية وضاعف من تودده إليه وإذعانه لتوجيهاته حتى اطمأن الرجل إليه تماما وفتح له قلبه فى صفاء نادر . وفى أوقات الفراغ قربه إليه ، وأفضى إليه بخواطره ، حتى السياسة صرحه فيها برأيه وأهوائه . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الإعراض عن اهتماماته أو معالنته بحياده البارد إزاءها ، وقال بغموض وحذر :

ـــ الحق أننا من مشرب واحد ، ولا عجب فى ذلك ..

فسر الكهل بقوله سرورا عظيما ذهل له عثمان . عجيب استغراق الرجل فى هذه الشئون . وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم إليها ؟. أليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟. ولكنه قال لنفسه بازدراء غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محددا ، وإيمانهم الدينى إيمان سطحى ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية فى معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من أجله ، وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم فى لهو وسفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل . تستغفلهم الأوهام ، ويمضى الزمن وهم لا يعلمون ..

٧

وقال له سعفان بسيونى بعد أن تلقى منه بريد الوارد :

ــ إنى أدعوك إلى سهرة ممتعة فى بيتى ..

دهش وانزعج ولكنه لم يفكر فى التملص . قال الرجل :

ــ يوجد حفل زفاف فى بيت الجيران ، سنتعشى معا لحمة رأس ، ونجلس فى الشرفة نستمع للغناء ..

كان الرجل يقيم فى شقة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعرية . وتبين له أنه كان المدعو الوحيد . طاب نفسا بالمكانة التى يؤثره بها رئيسه ، وتناول معه عشاء لذيذا مكونا من المخ والجبهة واللسان والجوهرة وممبار وفتة بالتقلية غير الفجل والمخلل ، وحلوى من الشمام ، أكلة ممتازة ووفيرة وقد أكل حتى امتلأ . وجلسا فى شرفة تطل على فناء البيت الذى قام فيه الفرح . تبدى الفناء غارقا فى الأنوار تصب عليه من كلوبات كثيرة . وصفت به الأرائك والكراسى التى اكتظت بالمدعوين ، واكتظت المماشى بالغلمان والأطفال ، وأحدق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج . وشعت الأنوار فى البيت من الداخل أيضا وتراءت النساء

وهن يذهبن ويجئن . وهدر المكان بالأصوات من جميع الدرجات والأنواع ، وارتفع الضحك والسعال والزغاريد . خفق قلب عثمان وهو يرنو إلى جو الفرح وانتقلت إلى فؤاده حرارته الفواحة بعطر الجنس والحب . لذلك تلقى دغدغات التخت الأولى بتأثر أشد مما توقع ومما ألف . فهو لا يعشق الغناء ولكن إذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو إلى حين قليل . حسن ، الموسيقى لا بأس بها أحيانا ، شيء طيب ومريح . الزواج علاقة باهرة وفرح ودين . وخالجه شعور شامل بالأسى .

ــ لعلك فى حاجة إلى الترفيه ، هذا ما أقوله لنفسى كثيرا ..

قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضيء أنوار الفرح أجزاء منه وتتوارى أجزاء فى الظلال . وقال أيضا :

ــ عمرك يجرى فى العمل والدراسة ولكن الحياة تطالبنا بأشياء كثيرة ..

أصغى إليه باهتمام فى الظاهر واستخفاف فى الباطن . إنه يحتقر المواعظ التى تحث على الكسل ويعتدها تجديفا بذى الجلال ، غير أنه تذكر سيدة فى عذابها الطويل ، وما عليه أن ينجزه ويحفظه ويراجعه ، وشعر بأنه يبتسم ابتسامة لا معنى لها . وعاد سعفان يقول :

ــ لك همة عالية ولكن راحة البال جوهرة ثمينة أيضا ..

فقال له واستخفافه به يتصاعد :

ــ أنت رجل حكيم يا سعفان أفندى ..

وظهر فى مدخل الشرفة شبح ، فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاى المنعنع . انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه رغم ظلام الغرفة القابع وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحى ، وثمة ملاحة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق . ساوره قلق . وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاى رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هى التى تنفث رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت فى الظلام وهى تدارى ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا . وساد صمت كأنه الشعور بالإثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سعفان :

ــ ابنتى ..

هز رأسه إعرابا عن الاحترام ..

ــ حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة ..

واصل هز رأسه فى تقدير وإعجاب . ترامت إليهما أصوات الجوقة وهى تغنى التواشيح . ومضى سعفان قائلا :

ــ البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت ..

لم يعلق ، لم يجد ما يقوله ، وضاق فى الوقت نفسه بصمته .

ــ ما رأيك فى ذلك ؟

ــ أوافقك كل الموافقة ..



البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت ..

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح فى حياتها المريرة . شعر بأنه يدفع إلى مصيدة . بدأ الغناء بصوت الطرب هادئا وخافتا وناعما . وتمتم سعفان :

— ما أجمل الصوت !.

— نعم .

— الحياة جميلة أيضا .

— بلا شك .

— ولكنها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها ..

— أليست الحكمة ثمرة عسيرة ؟

— كلا ، هى هبة من الله سبحانه .

قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة . الرجل يحاصره وهو لن يستسلم ، ولكن كيف يفوز بحريته ورضى رئيسه معا ؟!. لم يعد يسمع من الغناء شيئا . سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده وقدمه وينظر إليه بين ذلك متفحصا مستطلعا . وحنق عليه كجلاد ماكر . ورأى أن عليه أن يرد الدعوة بأحسن منها دفاعا عن نفسه المهددة . آلمه ذلك ألما غير هين . إنه لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا فى دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن بأن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من

شعائر دينه ، وأمان ضد الخوف فى عالم مخيف . ولكن لا بد مما ليس منه بد . سيرد الدعوة بأحسن منها . وسيتم ذلك فى مطعم لا فى حجرته المكتظة بالكتب ، الفقيرة فى كل شيء عدا ذلك . وإذن فسوف ينفق مبلغا جسيما حقا . اللعنة على الحمقى . بات الغناء ضجيجا لا معنى له وتفتحت أبواب الجحيم . والكهل يهز رأسه طربا غير عالم بجريمته . والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها .

٨

وقبل مضى الشهر دعا الرجل للعشاء فى مطعم الكاشف . تناولا سمكا شهيا وحليا بمهلبية . وكان الكهل من السعادة فى غاية وخيل إليه أنه يتوقع نزول ملاك السعادة والرحمة . ولم يقنع بالعشاء فيما يبدو فاقترح قائلا :

ــ ما رأيك فى سهرة فى الفيشاوى ؟

وجب قلبه بألم عميق ولكنه تأبط ذراعه قائلا :

ــ يا لها من فكرة رائعة !

وجلسا فى المقهى وهو يتذكر عيدا من أعياد الفطر تمزق فيه جلبابه الجديد فى معركة بحارة الحسينى ، ضربه أبوه ، واضطر إلى استعمال الجلباب عاما كاملا بعد أن رقعته أمه . وأزعجه سرور الكهل وانشراحه . إنه يتوقع أن يسمع خبرا سارا بلا شك . وها هى فرحة قلقة فى أعماق عينيه الشاحبتين ، وها هو يجود بالرضى على كل شىء .. قال :

ــ أأنت سعيد بزملائك فى المحفوظات ؟..

ــ أعتقد ذلك .

ــ إنهم تعساء ولكنهم طيبون ..

ــ إنهم طيبون حقا ..

ــ أما أنت فشاب ممتاز ، هل تعمل محاميا إذا انتهيت من دراستك ؟

ــ كلا ، لكنى أرجو تحسين حالتى .

ــ فكرة طيبة . يعجبنى طموحك الشريف !

وخرج عثمان من تردده مصمما على النجاة ولو بخنق آمال الرجل . قال :

ــ إن همومى أكبر مما تتصور ..

فرمقه الرجل متوجسا وسأله :

ــ لِم كفى الله الشر ؟

ــ لا يهمنى الطموح كما تظن ، تهمنى أشياء أقل من ذلك بكثير ..

ــ حقا ؟

ــ لولا الظروف القاسية لما فكرت إلا فى أمر بسيط وطبيعى ومعقول وهو أن أكمل نصف دينى !

لم يفلح الكهل فى مداراة الخيبة التى خنقته ، وتساءل :

ــ أى ظروف يا ترى ؟

فتنهد عثمان فى أسى وقال :

ــ مسئوليات جسيمة ، نحن أبناء الفقر وهو يصر على مطاردتنا ..
وأطرق وهو يقول بصوت كئيب :
ــ كم كنت أود ..
وسكت كأنما غلبه الانفعال . تراجع الكهل عن ضوء المصباح فمضى فى الظل . لا مفر من ذلك ولكن عليه أن يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة . وجاءه صوت الرجل من الظل :
ــ ومتى تستطيع الوقوف على قدميك ؟
فأجاب بنبرة يائسة :
ــ فى عنقى صغار وأرامل ، ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور فى ساقيه ..
مات كل شىء . حتى مطارق قطع النرد لم تعد تسمع . عاد يتمتم :
ــ كم كنت أود ..
فلم يعلق الكهل بكلمة . وأراد أن يدفع الحساب ولكن عثمان أبى عليه ذلك ودفعه من جيبه وهو يتمزق . تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع فى إحيائها الافتعال . وغادرا المقهى فمضيا مشيا على الأقدام حتى ميدان باب الشعرية ، وهناك فارقه الرجل إلى مسكنه . وجد نفسه فى حال تعيسة من التوتر والقلق . ودهمته موجة مجنونة من الاستهتار فدعته إلى التبذير اليائس كأسلوب من الانتحار .

وقصد بلا تردد الدرب ليدفن فى أعماقه قلقه وأحزانه وعذابات ضميره . وقال لنفسه بحزن :

ــ حتى أخطاء الإنسان يجب أن تكون مقدسة ..

٩

اعترضت أم حسنى طريقه وهو نازل . إنها لا تفعل ذلك بلا سبب . نظر إلى وجهها المخدد بالتجاعيد وشعرها المصبوغ بالحناء وجسمها القوى رغم شيخوختها فتذكر أمه ، صافحها وهو يبتسم فقالت :

ــ عندى خبر ..

ــ خير إن شاء الله .

فقالت وهى تضيق عينها الوحيدة ــ فقدت الأخرى فى معركة من معارك الحارة ــ قالت :

ــ لا خير فيه ..

نظر إليها جادا فقالت :

ــ عريس ، وجد عريس فى طريقك !

ــ هه ؟

ــ عريس تقدم لسيدة ..

اجتاحه حزن وذهول كأن ذلك لم يكن متوقعا . لم يجد ما يقوله .

ــ ترزى بلدى ..

كان يعلم بأن ذلك آت لا ريب فيه . لا يحاول دفعه ولا أمل له فى منعه . كالموت . ولم ينبس فسحبته من يده إلى حجرتها وأجلسته على الكنبة إلى جانبها ، وسألته :

ــ ألا يهمك الأمر ؟

شعر بألم حاد فى أعماق روحه . شعر بأن الدنيا تتلاشى . قال بغضب :

ــ لا تطرحى أسئلة لا معنى لها ..

ــ هدئ خاطرك ..

ــ يحسن بى أن أذهب .

ــ ولكنك لن تتمكن من لقائها .

الدنيا تتلاشى أكثر وأكثر .. قالت :

ــ كان يجب أن تدرك ذلك من نفسك .

ــ لِم ؟

ــ أمها تتشدد فى منعها من الخروج ، فرجل حقيقى خير من خيال ..

وتمتم بلا وعى :

ــ رجل حقيقى خير من خيال .

ــ أنت تحبها . أليس كذلك ؟

فقال بأسى :

ــ إنى أحبها .

ــ حكاية محفوظة فى حارتنا .

ــ وهى حقيقية .

ــ عظيم ، ولِم لم تتكلم ؟

فقال بحدة :

ــ لا أستطيع .

ــ اسمع ، توسلت البنت إلىّ أن أبلغك ..

تنهد فى يأس كامل . فقالت المرأة :

ــ اذهب من توك فاخطبها أو دعنى أتولى ذلك عنك .

حادث نفسه بأصوات مبهمة كأنما يتكلم لغة مجهولة حتى ذهلت المرأة فقال مواصلا حديثه مع نفسه :

ــ ولن يغفر الله لى ..

ــ أعوذ بالله ، أتراها غير أهل لموظف مثلك ؟

ــ لا تتقولى علىّ يا أم حسنى ..

ــ أطلعنى على قلبك ، أنا أمك ..

فقال متنهدا :

ــ لا أستطيع أن أتزوج الآن .

ـــ تنتظرك كما تشاء .

ـــ سيطول الانتظار ..

ـــ اربطها بكلمة ، هذا يكفى الآن ..

ـــ كلا ، لست أنانيا ، إنى أرفض حرصا على سعادتها .

وهمت بالاسترسال فى الحديث ولكنه غادر الحجرة . سار ببطء فى الحوارى الضيقة . كان يتعذب بعمق ويسلم بمرارة بأنه لن يراها مرة أخرى . ورغم عذابه شعر بارتياح خفى يائس ، وبقدر ارتياحه آمن بأن اللعنة حلت به . إنه يحبها ولن تملأ أخرى الفراغ الذى خلفته وراءها فى نفسه . وهذا الحب لن يمحى بسهولة ، وسيعلمه كيف يكره نفسه وطموحه ، ولكنه سيصر على التعلق بهما بقوة الكراهية واليأس . إن ما يركبه جنون ، ولكنه جنون مقدس يغلق باب السعادة باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوة فى طريق المجد الشاق المحفوف بالأشواك . إن السعادة تغريه بالتفكير فى الانتحار أما الشقاء فهو الذى يحرضه على نشدان الحياة وعبادتها .

ولكن يا للخسارة يا سيدة !..

وتقدم فى كل شيء ولكن عذابه لم يكد يخف ، ورسخت قدمه فى عمله حتى شهد له سعفان بسيونى ــ رغم إخفاقه معه ــ بالمواظبة والكفاءة والاستقامة ، وكان يقول عنه :

ــ إنه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفى أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة ..

وهو يؤدى عمله ، ويؤدى عن المتأخرين أعمالهم ، فالكلام عن نجدته لا يقل عن الكلام عن قدرته . وسار فى دراسته بعزم قوى يبشر بنجاح باهر . وأصبح من مدمنى التردد على دار الكتب ، يقرأ بنهم شتى الثقافات إلى جانب دراسته القانونية الشاقة . أصبح كذلك من الوجوه المعروفة التى ترى فى جامع الحسين فى صلاة الجمعة فعرف فى الحى ــ كما عرف فى الوزارة ــ بالتقوى والورع . ولكن عذابه لم يكد يخف ، وظلت سيدة مسيطرة تماما على خياله ووعيه حتى قال لنفسه :

ــ إنها الجوهرة الوحيدة فى حياتى ..

وفى مواعيد اللقاء يجلس على سلم السبيل الأثرى فتلفحه حرارة

الذكريات ويغوص فيها حتى تتجسد له حية ملموسة . فى لحظات اشتداد الوجد يتوقع أن يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة محفوفة بالشوق والحياء . وحديثها الطويل وعناقهما الحار وكل موضع ثمين غسله بقبلاته . ولكنها لا تأتى ولن تأتى . قطعته ولعلها نسيته . وإذا خطر ببالها لعنته بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها فى ساعة العصارى فخيل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتبترد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة . وقال لنفسه :

ـــ مقدس الإنسان فى عذاباته ..

وقال أيضا :

ـــ لا يخلو عمل للإنسان من عبادة ..

وصادفها صباح الجمعة فى الخيمية بصحبة أمها تلاقت عيناهما لحظة ثم حولتهما عنه فى غير مبالاة . لم تلتفت وراءها . تجلى له معنى من معانى الموت ، كما خرج أبوه من الجنة بإرادته . وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء .

وكان يختلف إلى الدرب بحذر وانفعال ويأس . ووثقت الأيام علاقته بفتاة تماثله فى السن تسمى نفسها قدرية . جذبته بسمرة غامقة ـــ مثل سيدة ـــ ولكنها أعمق فى زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة فى البدانة . ومنذ ساقته قدماه إليها ـــ منذ زمن ليس بالقصير ـــ

لم ينحرف إلى سواها . وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائية بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرآة وكرسى وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته فى ليالى الشتاء . ومرت أعوام لم يبادلها سوى تحية القدوم وتحية الذهاب . ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضرورى . وكان قدح النبيذ من نبيذ « السلسلة » الجهنمى — بنصف قرش — يكفى لطمس عقله وبعث الجنون فى دمه حتى قال لها مرة فى نشوة مضحكة :

— أنت سيدة الكون ..

وكان يتأمل الحجرة العارية ، ويشم رائحة البخور ، ويلمح الحشرات ، ويتخيل الجراثيم المستكنة ويتساءل أليس هذا الركن الملعون المشتعل بنار الجحيم جزاء من مملكة الله ؟!. ومرة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس فى الحجرة العارية . خلا الدرب وخفتت الأصوات وساد الظلام . تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسى الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة . ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدونا بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها — كعادته — بصوت مسموع . وسألته قدرية :

— قرآن ؟

فهز رأسه بالنفى وهو يبتسم .

ـــ مواعيد غرامية ؟

ـــ دروس !

ـــ تلميذ ؟!.. ولماذا تربى شاربك ؟..

ـــ موظف وتلميذ فى مدرسة ليلية ..

وتذكر سيدة بحنين وأسى . وخطرت له فكرة استراح لها وهى أن المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه .

وعاد ذات يوم إلى الحارة فرأى الأرض مفروشة بالرمل أمام بيت سيدة والرايات تخفق على الجانبين . دق قلبه دقة النهاية . والتقى بأم حسنى على السلم ـــ ترى هل تعمدت أن تنتظره ؟ ـــ فحياها عابرا ومضى وصوتها يدعو له :

ـــ ربنا يحقق مقاصدك ويسعدك ..

لم يستطع أن يركز عقله فى دروسه . واقتحمت حجرته الصغيرة الأصوات ، الزغاريد ، تهليل الغلمان . موسيقى حسب الله ، أجل .. ها هى سيدة تدخل مملكة رجل آخر ، وتنطوى فترة من الشباب وتدفن .

* * *

غادر البيت بتصميم جديد . قال إن الحياة أعظم من جميع آمالها . وأن الخيام أجمل حكمة من المعرى . وأن القلب هو المرشد الوحيد .

اقتحم الفرح حتى قالوا إنه مجنون . وأشار إلى سيدة وقال لها « إنى أدع لك الحكم » . استجابت رغم الصراخ والعويل لأنه فى اللحظات الحرجة التى تسبق الإعدام تتعرى الحقائق فتهزم الموت . ومضى بها مخترقا ثلاثة أزقة مارقا من باب النصر إلى مدينة الأموات وهما يترنحان من السعادة .

* * *

لم تسكت الأصوات والزغاريد والأغانى حتى مطلع الفجر . وكان ينظر إلى الكلمات ولا يفقه لها معنى . وشعر بالوحدة فتوغل فى عالم مجدب خال من الأصوات والأمل . وثقلت عليه المعاناة فى الطريق الشاق فتذكر معارك الأمم ، ومعارك الجرائم ، ومعارك الصحة والعافية فهتف :

ــ سبحان الله العظيم !

١١

حضرة صاحب السعادة المدير العام :

أتشرف بإبلاغ سعادتكم بأننى حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام ـــ من منازلهم ـــ استزادة من العلم واستمكالا للوسائل الضرورية للموظف ، مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم ، فى ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه .

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرافقة بملف خدمتى .

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام ؟

عثمان بيومى

كاتب الواردات بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحا باهرا بالقياس إلى زملائه المتقدمين من منازلهم . وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفان بسيونى ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الإدارة حمزة السويفى ، فهو يسرك فى صادر المحفوظات ثم يسرك مرة أخرى فى وارد الإدارة . بعد ذلك يعرض على حمزة السويفى ليوقع بعرضه على

حضرة صاحب السعادة المدير العام ، فيسرك فى صادر الإدارة ثم يسرك فى وارد مكتب المدير العام ، ثم يقرأه حضرة صاحب السعادة المدير العام ، يقرأه بعينيه ويتسلل إلى ذاكرته وربما هز عواطفه ، ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لإجراء اللازم ، فيسرك فى صادر مكتب المدير العام ووارد المستخدمين حيث تتخذ الإجراءات ثم ترسل صورة إلى المحفوظات التى صدر منها الخطاب للحفظ فى ملف خدمته الإدارى ، بذلك تتم الدورة الفلكية ويعلم من لم يكن يعلم .

وثمل بالسعادة يوما . وتتابعت الأيام . ماذا بعد ذلك ؟. هل يبتلع الصمت كل شىء ؟. لا شىء يحدث . النار المقدسة مشتعلة فى صدره . ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة . الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشر بالضياء . وقد انتهى من الدراسة أما اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقف أبدا . إنه يشبع بها أشواقه إلى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون أهلا للمركز الذى سيشغله يوما بإذن الله وفضله ، ويتسلح بها فى نضاله الطويل المرير فى الغابة الرسمية التى يطالب فيها كل ذى شأن بقرابينه . إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الأسر الكبيرة . ولا قوة حزبية تسنده ، وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذى عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التى قضت على الإنسان

بالسقوط فى الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى إلى السماء .

ومن خلال تتابع الأيام فى مجراها الأبدى خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها إلى وزارة أخرى . وقال له سعفان بسيونى :

ــ رشحتك للدرجة الخالية فلا يوجد فى المحفوظات من هو أحق بها منك ..

فشد على يده بامتنان وهو يود أن يقبله فقال الكهل :

ــ سبعة أعوام مضت عليك فى الثامنة ، وقد حصلت فى أثنائها على ليسانس الحقوق ، وأثبت بجدارة كفاءة لا نظير لها ..

وضحك الكهل كاشفا عن أسنانه السود المثرمة وقال :

ــ وهى مضمونة لك إن شاء الله فلا رغبة لأهل الوساطات فى وظيفة بإدارة تسكنها الثعابين والحشرات ..

وطال الانتظار ومضت الأيام . وقال لنفسه ها هى سبعة أعوام تمر فى درجة واحدة فيلزمنى على هذا القياس أربعة وستين عاما حتى أبلغ الأمل المنشود . المدير العام الذى أشعل النار المقدسة فى قلبه . لم تقع عليه عيناه منذ مثل بين يديه ضمن المستجدين . وإن متعة نفسه أن يقف فى جانب من الميدان يراقب موكبه وهو يغادر الوزارة فى أبهة الملك وقدسيته . هذا هو غاية الحياة ومعناها وجلالها .

واستفحل العمل فى الإدارة أيام إعداد الميزانية فاحتاج مدير

الإدارة إلى موظفين إضافيين من الأقسام التابعة له فندب عثمان للعمل عن المحفوظات . سر بذلك وقال إنها فرصته . وتوثب للعمل بهمة هائلة ، عمل مع المراجعين كما عمل مع وكيلى الإدارة ، وشهد اجتماعات مع مدير الإدارة نفسه . انفجر كبركان وكأنما كان ينتظر هذه الفرصة مذ اشتعل قلبه بالطموح المقدس . ولم يتردد فوضع نفسه تحت تصرف السادة الرؤساء من مطلع الصباح حتى منتصف الليل . فى الظروف الدقيقة الحرجة ينسى كل شىء فى الحكومة إلا الكفاءة الحقة . والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة ، فلا مجال فى أيامها المشحونة بالإرهاق لصاحب امتياز ، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعى نفسه ويتقدم الأكفاء ويعترف بالقيمة الذاتية حتى ولو لم يقدر لها حسن الجزاء . وقد لفت عثمان إليه الانتباه وحاز الثقة الكاملة ، وتجلت قدرته الخارقة على العمل ، كما تجلت درايته باللوائح والقانون . ولم يقنع بما أحرز من نجاح فتطوع سرا لكتابة مشروع بيان الميزانية الذى يكتبه عادة مدير الإدارة بنفسه . وهيأ له العمل فرصة الانفراد بمدير الإدارة حمزة السويفى فلما فرغ من عرض أوراقه قال له بأدبه الجم :

— سيدى المدير ، اسمح لى أن أقدم لكم بعض الملاحظات التى قيدتها أثناء العمل لعلها تنفع عند النظر فى تحرير بيان الميزانية !

فنظر إليه حمزة السويفى باستخفاف مشوب بالعطف وقال :

ـــ أنت شاب ممتاز كما يقال عنك ..

ـــ أستغفر الله يا فندم .

ـــ على فكرة مبارك فقد تمت اليوم الموافقة على ترقيتك إلى السابعة ..

تمتع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان :

ـــ بفضل الله وفضلكم !

فقال مدير الإدارة مبتسما :

ـــ مبارك ، أما بيان الميزانية فشىء آخر !

فقال باستماتة :

ـــ عظم الله قدرك ، لا جرأة لى على الاقتراب من بيان الميزانية ، ولكن عنت لى ملاحظات فى أثناء العمل ، ملاحظات مجتهد درس القانون والمالية ، فطمع أن تكون فى الخدمة عندما تحتشدون لوضع البيان الخطير .

وتناول الرجل « الملاحظات » وراح يقرأها والآخر يتابعه باهتمام مركز خيالى . لقد سيطرت عليه الملاحظات ، هذا واضح . ثم قال بهدوء سطحى :

ـــ أسلوبك جيد ..

ـــ شكرا يا سيدى ..

— يخيل إلىّ أنك قارئ ممتاز .

— أعتقد ذلك يا سيدى .

— ماذا تقرأ ؟

— الأدب ، سير العظماء ، الإنجليزية والفرنسية ..

— هل لك قدرة على الترجمة ؟

— إنى أمضى أوقات فراغى فى مطالعة القواميس .

فضحك حمزة السويفى وقال :

— شىء جميل ، وفقك الله ..

وأذن له فى الانصراف ولكنه استبقى « الملاحظات » عنده . وغادر عثمان حجرته ثملا بالأفراح ، يؤمن بأنه نال من ثقته ما هو أثمن من الدرجة السابعة نفسها .

وعندما طبع مشروع الميزانية بعد ذلك بأشهر هرع عثمان إلى مقدمة الميزانية فقرأ البيان الذى كتبه بخط يده عدا تغيير طفيف لا يقدم ولا يؤخر . سعد بذلك سعادة كبيرة ، امتلأ ثقة بنفسه وبمستقبله ، واستوصى بذكائه فلم يفش سر البيان لأحد .

وما لبث أن صدر قرار بنقله من المحفوظات إلى إدارة الميزانية .

ليلتها وقف وراء نافذة حجرته ينظر إلى الحارة الغارقة فى الظلام . ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة . مستقرة فيما يبدو ولكن لا شىء جامد فى الكون . وقال إن الله خلق النجوم الجميلة

ليحرضنا على النظر إلى أعلى . وأن المأساة أنها ستطل يوما من عليائها فلا تجد لنا من أثر . ولا يتحقق معنى لوجودنا إلا بالعرق والدم .

١٢

قال له سعفان بسيونى :

ـــ سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما أنا سعيد بك .

وذاب عثمان فى الجو العاطفى بإخلاص وقتى فدمعت عيناه وتمتم :

ـــ لن أنساك أبدا يا سعفان أفندى ولن أنسى عهد المحفوظات .

ـــ ولكنى سعيد لأنك سعيد ..

فتنهد عثمان وقال :

ـــ السعادة عمرها قصير جدا يا سعفان أفندى .

ولم يفهم سعفان قوله ولكن الآخر كان يعيشه. كان يحمل الزمن على ظهره لحظة فلحظة ويعانى الصبر نقطة نقطة . وسرعان ما نسى تماما أنه رقى إلى السابعة أو أنه يعمل فى إدارة الميزانية ، كان يعمل بجنون فى الوزارة ، ويتبحر فى المعرفة فى حجرته الصغيرة . وبين هذا وذاك يقول بجزع :

ـــ العمر يجرى .. الشباب يجرى .. الأيام لا تريد أن تستريح ..

وما زال فى أول الطريق الطويل . وكان ولعه بالادخار يزداد مع

الأيام ، واستمساكه بمسكنه البدائى يقوى ويشتد . المال حصن ، هكذا يشعر . وهو مهر عند الضرورة لعروس الأحلام . وعروس الأحلام هى التى تفتح مغالق الأبواب وتستنزل جوهرة المستقبل من معتصمها . وللموظفين فى ذلك أقوال مأثورة وحكم وأمثال . العروس الجميلة إما أن تكون هدية مجد مبكر أو ذريعة إلى المجد المستعصى . والطريق يبدو شاقا وطويلا فهو فى حاجة إلى إسعاف . وهم يقولون :

ـ سعادة المدير العام ارتقى إلى مركزه الفريد وهو شاب تقريبا بفضل السياسة والأسرة فتزوج من فتاة من أسرة تعد من ملكات الجمال .

ويقولون أيضا :

ـ أما الوكيل الأول للإدارة فترقى بفضل زوجته ، أو أسرة زوجته وهو الأصح ..

وهو يزود نفسه بكل سلاح فلا عيب إذا استعان بعد ذلك بعروس كريمة ، وإلا فكيف يقف ضد تيار الزمن المتدفق بلا رحمة ؟!. ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله ويزيد بالتالى من مدخراته . ونجح فى ذلك نجاحا لا بأس به . ولم ينفق مليما جديدا للتخفيف من تقشفه . ولم يعرف من عالم اللهو إلا زيارته الأسبوعية لقدرية فى الدرب وشرب قدح النبيذ الجهنمى

بنصف قرش . قالت له مرة :

ـ أنت لا تغير هذه البدلة أبدا ، هى هى صيفا وشتاء ، أعرفها من سنوات كما أعرفك ..

فقطب ولم يعلق فقالت :

ـ لا تغضب ، أنا أحب الضحك ..

فسألها بسذاجة :

ـ هل جمعت ما أعطيتك من نقود طيلة السنين الماضية ؟

فقالت ساخرة :

ـ عشقت رجلا مرة فسرق منى مائتى جنيه ، هل تعرف معنى مائتى جنيه ؟

تخيل المصيبة فاستعاذ بالله وقال لنفسه إن كوارث الدنيا لا تعد ولا تحصى ، وسألها :

ـ وماذا فعلت ؟

ـ لا شىء ، ربنا يحفظ صحتنا فهى الأهم ..

قال لنفسه إنها مجنونة بلا شك ، ولذلك فهى بغى . ولكنها كانت الترفيه الوحيد فى حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به . وأحيانا كان يحن إلى الحب وأيامه وسحره الذى يغير مذاق الدنيا ، ويتذكر سيدة وسلم السبيل المهجور والصحراء ، ولكنه يستسلم فى النهاية لدعابات الدنيا القاسية ، ويرضى عن نفسه المعذبة لاختيارها الطريق



ولم يعرف من عالم اللهو إلا زيارته الأسبوعية لقدرية

العسير المكلل ببركة الله ومجده العالى . وقالت له قدرية ذات ليلة :

ــ ألا تحب أن نمضى صباح الجمعة معا فى نزهة ؟

فدهش وقال :

ــ إنى أجيئك كاللص متخفيا فى الظلام ..

ــ مم تخاف ؟

ماذا يقول ؟.. إنها لا تفهم شيئا . وقال معتذرا :

ــ لا يجوز أن يرانى أحد ..

ــ هل ترتكب جريمة ؟

ــ الناس ..

فقالت هازئة :

ــ أنت الثور الذى يحمل الأرض على قرنيه .

إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها . وقالت له بإغراء :

ــ ممكن أن تحتكرنى ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك ..

فسألها بحذر :

ــ والثمن ؟

ــ خمسون قرشا ...

وفكر باهتمام . سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . إنه فى حاجة إلى الراحة . قال :

— فكرة طيبة ولتكن مرة فى الشهر ...

— هل تكتفى بمرة واحدة فى الشهر ؟..

— ربما أجىء غيرها ولكن بالطريقة العادية .

واعترف بأنه لا غنى له عنها . إنها تماثله فى السن ، ولكن يبدو أنها غافلة عن الزمن ، وعن أثره السريع فيها . وهى تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها تؤاخى الشيطان فى غضبها . وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت فى مظاهرة فهتف محتدا :

— مظاهرة !

— ما لك !.. نعم مظاهرة .. حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما ما ..

وقال إن الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه . وهو يصر على عدم الاكتراث بها . ويؤمن بأن للإنسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا مصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الإنسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه وبما يطالبه به فى هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق فى تخبطه الواعى بين الخير والشر ، ومقاومة الموت حتى اللحظة الأخيرة .

واطلع عثمان بيومى ذات يوم على إعلان له شأنه. أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى مترجم للغتين الإنجليزية والفرنسية بمكافأة ٣٥ ج . م ، وحددت يوما لامتحان مسابقة . اشترك فى المسابقة بلا تردد وبلا تفكير شامل . وأسفرت النتيجة عن اختياره مما زاد ثقته بنفسه واعتزازه بمواهبه . واستدعاه حمزة السويفى إلى مكتبه ــ وكانت الوظيفة الجديدة فى مكتبه ــ وقال له :

ــ أهنئك على نجاحك الذى يقطع بتعدد قدراتك .

فشكره عثمان بأدبه المعهود فقال الرجل :

ــ ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت فى ذلك ؟

لم يفطن فى الواقع إلى ذلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتبها الضخم نسبيا وقال :

ــ الحق إنى لا أرغب فى الخروج من الكادر العام ..

ــ هذا يعنى أن نعين التالى فى الترتيب ؟

فطرأت على ذهنه فكرة طيبة فقال :

ــ ألا يمكن أن أرقى إلى الدرجة السادسة على أن تضاف إلى أعمال الترجمة وبذلك أوفر للميزانية مبلغا لا بأس به ؟

فتفكر مدير الإدارة مليا ثم قال :

ــ المسألة تحتاج إلى مراجعة المستخدمين والإدارة القانونية ..

ــ ليكن يا سيدى ..

فضحك حمزة بك وقال :

ــ إنك طموح وحكيم ، أرجو أن يكون اقتراحك مقبولا ..

وتقررت ترقيته إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها ، ورغم تضحيته بعشرة جنيهات إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلا عن الأهمية التى اختص بها بعمله المزدوج . وتمتع بسعادة قصيرة كالعادة . لم يعرف السعادة إلا خطفا مثل لقاءات الطريق العابرة . وعاد يقيس الطريق الطويلة ويئن تحت وطأة لا نهائيتها . ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك أن يلج مرحلة جديدة من العمر ؟. وقبله سعفان بسيونى وقال له :

ــ إنك تقفز بقوة مليحة يا ولدى ..

فقال بأسى :

ــ ولكن الأيام أسرع من الخيال ..

ــ هى كذلك كفاك الله شرها ..

فرنا إلى وجهه المتغضن وسأله :

ــ هلا حدثتنى عن طموح شبابك ؟

ــ أنا ؟!، له الحمد ، كانت رئاسة المحفوظات أبعد من خيالى ..

ــ ألم تحلم بأن تكون المدير العام ؟

فأغرق الكهل فى الضحك حتى دمعت عيناه ، ثم قال :

ــ نحن أبناء الشعب لا نطمع فيما يتجاوز رئاسات الأقسام .

إنه مخطئ . إنما يصدق كلامه على وظائف الوزراء والوكلاء ، أما وظيفة المدير العام فلا تستعصى على أبناء الشعب ، هى أملهم المنشود والأخير . وبخاصة الأفذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم . بيد أن الأيام تمر بلا توقف ، وفى غفلة ونعومة ، ولا قيمة لدرجة المدير العام إذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها أعواما حتى ينعم بها وينعم بالدنيا فى ظلها ويحقق باسمها أجل الخدمات للجهاز المقدس الذى يسمونه الحكومة .

ومتى يكمل نصف دينه ؟. قبل بلوغ الأمل أم بعده ؟. يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فإما العروس التى ترفع إلى العلا وإما العلا الذى يحظى بالعروس الباهرة . ومن شدة معاناته للعذاب يحن أحيانا للهدوء والخمول ويتطلع إلى الجهاد الشاق الذى يهب الحياة معناها الوحيد ، وعذابها المقدس .

وسمع ذات يوم أن مدير الإدارة حمزة السويفى يشكو ضعف نجله فى اللغات الأجنبية فاقترح عليه أن يساعده . وتردد الرجل قائلا :

ــــ الأوفق أن أحضر له مدرسا خاصا حرصا على وقتك .

فقال له بأسلوبه المختار :

ــــ لن أغفر لسعادتك هذا القول ..

وتردد على بيت المدير فقدم للشاب مساعدة فذة كان لها أثرها فى إنجاحه . وفكر المدير فى تقديم مكافأة له فتراجع كأنما يجفل من نار وقال :

ــــ لن أغفر لسعادتك هذا أيضا ..

وأصر على موقفه حتى سلم الرجل ، فقال له بنبرة الممتن :

ــــ لا زلت أسير فضلك وتشجيعك ..

على أنه شعر فى أعماقه بألم يناسب المبلغ الذى رفضه بشهامته . وثمة خيبة أخرى عاناها فى تردده على بيت المدير ، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا « مناسبة » ومن يعلم ؟.. وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك فيغضى عن وضاعة أصله ، ويقبله فى طبقة جديدة تمهد له السبيل إلى التقدم . ولكن الحلم لم يتحقق ، ولم يصادفه فى تردده إلا الذكور !. سعفان بسيونى ما كان يهمه أصله فهما من أصل واحد تقريبا ومنبت متشابه ولكن أى فائدة كان يرجوها من الزواج من كريمته ؟. لا شىء إلا الذرية والمتاعب والفقر . ولا حب أيضا . فهو لم يحب إلا سيدة ، وقد مات قلبه مذ سلاها ، ولكن المتطلعين إلى المجد فى طريق الله لا يحفلون بالسعادة .

وتمضى الأيام ، وستمضى أبدا ، بصيفها اللافح وخريفها الحالم وشتائها القاسى وربيعها الفواح ، وسيظل عزيمة مثابرة وهمة متصاعدة وقلبا معذبا وأشواقا طاحنة .

١٤

وزارته أم حسنى كعادتها بين الحين والحين . أهدته برطمانا من الليمون المخلل وجلست على الكنبة وهى تنظر إليه باهتمام أثار فضوله . ضربت على ركبتها فجأة وقالت :

ـــ تحزننى وحق الحسين وحدتك ..

فابتسم بلا اكتراث فقالت :

ـــ أنسيت أنك تتقدم فى العمر ؟

ـــ كلا طبعا يا أم حسنى ..

ـــ وأنه لا يوجد ما هو أغدر من السنين !

ـــ صدقت .

ـــ أين الذرية لتؤنس وحدتك ؟

ـــ فى عالم الغيب .

وصمت قليلا حتى قال ضاحكا :

ـــ طبع مهنتك يتحرك فيك يا أم حسنى ..

فضحكت وقالت :

ـــ اسمع ، عندى شيء ثمين ..

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث بإغراءاته العذبة المجهولة .

قال :

ـــ دائما عندك شيء ثمين .

فقالت بأمل :

ـــ حلوة .. أرملة .. متوسطة العمر .. ولكنها عاقلة ، بنت المرحوم شيخ الحارة ..

ـــ هه !

ـــ لها بنت وحيدة فى الرابعة عشرة !.

ـــ إذن هما امرأتان لا امرأة واحدة ..

ـــ ستذهب البنت إلى بيت عمها .. لا تحمل هما من هذه الناحية ..

ـــ عظيم .

ـــ وهى صاحبة ملك !

ـــ حقا ؟!

ـــ بيت فى برجوان ... فى حوشه شجرة توت ..

نظرت إليه ببصرها الضعيف لترى أثر كلامها ، فتوهمت رضاه ، وقالت :

— ستراها بنفسك ..

وبإرشاد من أم حسنى رآها فى السكة الجديدة . رآها ترتدى معطفا ولكن وضح له أن مشيتها المتثنية الوانية تربت وترعرعت فى الملاءة اللف . مائلة للقصر وبدينة ، ذات وجه ريان وشعر أسود . نادت فيه رغبة بدائية . مثل قدرية . قال إنها أنظف ربما ولكن متاعبها أكثر بما لا يقاس . وشعر برثاء نحو أم حسنى التى تجهله كل الجهل رغم طول المعاشرة . من أين لها أن تفهم معنى مراجع بإدارة الميزانية ومترجم ؟. مأساة الآدمية أنها تبدأ من الطين ، وأن عليها أن تحتل مكانتها بعد ذلك بين النجوم .

وسألت أم حسنى :

— ما رأيك ؟

فأجاب باسما :

— سيدة ممتازة .. ما زلت أستاذة !

— هل أكمل ما بدأت ؟

فأجاب بهدوء :

— كلا .

— ألم تقل إنها سيدة ممتازة ؟

— ولكنها ليست بالزوجة الصالحة لى .

وأثبتت العجوز أنها أعند مما يتصور فجاءته يوما وهى تقول :

ـــ من المصادفات السعيدة أن ست سنية جاءت تزورنى ..

فتحركت الرغبة البدائية واستسلم لضعف طارئ فذكرته أم حسنى بقولها قائلة :

ـــ جاءت تزورنى ..

فقال بخبث :

ـــ لعلها تزورنى أيضا .

فقالت وهى تمضى :

ـــ إذا شئت فانزل أنت ..

ولم يتردد فنزل . وغلب الصمت فانفسح المجال لأم حسنى فراحت تتكلم بلا توقف . وتذكر عثمان أنه لم يتكلم كلاما له معنى إلا مع سيدة . واضطر أن يقول :

ـــ شرفتنا ..

فهمست :

ـــ متشكرة ..

ـــ الجو بارد اليوم .

ـــ نعم .

ـــ هل انتهيت من تبييض بيتك ؟

فأحنت رأسها بالإيجاب .

حاولت أيضا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنه لزم

الصمت . ورغبته تأججت ولكن بلا أمل وتحركت سنية حركة خفيفة تنبئ عن رغبتها فى الذهاب فقام من فوره ، سلم وذهب . وبدلا من أن يصعد إلى شقته هبط أسفل السلم مضمرا خطة تتسم بالجرأة . سمع أقدامها وهى تتحرك على السلم نازلة . دهشت لمرآه فقال متظاهرا بالدهشة كذلك :

ـــ فرصة طيبة ..

أوسع لها ولكنه همس وهى تحاذيه :

ـــ تفضلى لشرب فنجان شاى فوق ..

فقالت بعجلة :

ـــ شكرا ..

ـــ تفضلى عندى ما أقوله ..

فقالت باحتجاج :

ـــ كلا .

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك . قال وأطرافه ترتعش بالرغبة إنه أسرع ، كيف تصور أنها يمكن أن تقبل ؟، ولكنها الرغبة وقلة الصبر والحيلة . وصعد خجلان غاضبا . وقال إنه سيظل مراهقا حتى يستقر فى بيت محترم .

حالته المالية تتحسن يوما بعد يوم ، استحق علاوة ، وعائده من الترجمة يتزايد ، ولأنه لا ينفق إلا ما تحتمه الضرورة فرصيده فى البريد يرتفع باستمرار . وهمته فى العمل لا تهن ، وعلاقته بمدير الإدارة حميمة كأنها الصداقة ، ويوما قال له :

ـــ أبدى سعادة المدير العام إعجابه بأسلوبك فى الترجمة ..

فاجتاحته موجة فرح حتى أغرقته ، وأيقن بأنه لن ينام من الليل ساعة . طبعا سعادته لا يتذكره ، ولكنه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنوى . قال مدير الإدارة :

ـــ سعادة المدير مترجم كبير ، ترجم كثيرا من الكتب الهامة فهو يقدرك عن بينة !

وتمتم شاكرا ثم قال :

ـــ إنما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عنى .

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة فى الود :

ـــ دعيت لإلقاء محاضرة فى جميعة الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فما رأيك فى أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟

فقال بحماس :

ـــ إنها لسعادة كبرى يا سيدى المدير .

إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا . إن عمله فى الإدارة ـــ على ضخامته وتقدير الجميع له ـــ لن يكفى وحده . فلا أقل من تقديم الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة . ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه . ولكنه عزاء يتزود به فى طريقه الطويل . وفى الليل غشيته كآبة بلا مقدمات وهتف :

ـــ يا لى من مجنون ، كيف أتصور أننى سأبلغ يوما مرادى ؟!

وحسب ما ينقصه من درجات ، الخامسة والرابعة والثالثة والثانية والأولى ، قبل أن يتبوأ ذروة المجد !. حسب ذلك وما يقتضيه من سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالأسى . وقال إنه يجب أن يحدث شىء كبير ، وأن حياته لا يمكن أن تضيع هدرا . وكان على موعد مع سعفان بسيونى فى المقهى فارتدى ملابسه وغادر الشقة . وجد أم حسنى فى انتظاره أمام شقتها فقالت له :

ـــ عندى ضيوف يجب أن تسلم عليهم ، عندى سيدة وأم سيدة ..

دخل وسلم . دخل كالخائف ولكن سرعان ما أدرك أن كل شىء قد انتهى وانقضى . لم يلمس لمحة جفاء أو عتاب واحدة ، ولكنه رأى

نظرة محايدة لا تكلف فيها ولا التماعة تذكر فأيقن من سقوط الماضى فى هوة الموت اللا نهائية . وضاعف من إحساسه العميق بالزمن ترحيب الأم به ترحيبا صافيا بلا شائبة . رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظن بها الخلود والأبدية فإذا بها ذكرى مجردة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنها خروج آدم من جنة الخلد . وها هى سيدة تميل إلى البدانة والبلادة ، ذكرته بقدرية ، فأمعن فى الاضطراب ورأى أعلى ملاءتها قد هبط عن رأسها فطوق منكبيها ، فانطلق الرأس والعنق فى حرية ، وتراجع منديلها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدم شعر مفروق ، أما الألق الذى ألف أن يطالعه فى عينيها فقد استقر وانطفأ . تمت المقابلة فى جو محنط وغربة ساخرة ، وعبثا حاول أن يجد فوق الشفتين الغليظتين أى أثر لشفتيه أو أسنانه . مكث ما تقتضيه المجاملة ثم ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتاك ذى الابتسامة الناعمة القاسية . ذهب إلى رئيسه القديم لقضاء سهرة ودية لمناسبة إحالته على المعاش بعد أيام معدودات . أمسى الكهل عودا هزيلا ، هلكت آخر شعرة فى رأسه ، لا بسبب الكبر ولكن لمرض فى المعدة ، ولكنه ظل طيبا مستسلما كالعهد به . ووضح أنه يستقبل نهاية خدمته بكآبة وحزن وتشتت فمضى يجامله ويقول :

ـــ أتمنى لك راحة سعيدة مديدة ..

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها :

ـــ لا أدرى كيف تكون الحياة بعيدا عن المحفوظات ..

ثم وهو يتنهد :

ـــ ولا هواية لى ، وهذا هو المزعج حقا ..

ـــ ولكنك محبوب ، الجميع يحبونك ..

ـــ نعم ، ولم تعد لدى واجبات عائلية بلا إنجاز ، ولكننى خائف .

وجعلا يحتسيان الشاى وهو يسترق منه النظر برثاء حتى رجع يقول ـــ الرجل ـــ :

ـــ أذكر يوم التحاقى بالخدمة كأنه الأمس ، إنه يوم لا ينسى مثل ليلة الدخلة ، أذكره بكل تفاصيله ، كيف مر ذلك العمر بهذه السرعة ؟!

فانقبض قلب عثمان وتمتم :

ـــ نعم كأشياء كثيرة ..

فابتسم إليه كأنما يفتتح بالابتسامة عهدا جديدا وسأله :

ـــ وكيف حال أعبائك العائلية ؟

تذكر إدعاءاته الكاذبة فقال :

ـــ ما زال الحمل غير خفيف ..

فرنا إليه بمودة وقال :

ـــ تسلمتك غلاما كبيرا ليس إلا ، وها أنت اليوم رجل كامل ،

وعما قليل .. ولكن ما علينا ، المهم ألا يسرقك الزمن ، خذ بالك بكل قوة ..

ــ عظيم ، وهل يجدى ذلك ؟

ــ على الأقل لا يجوز أن يفوتك القطار ..

ــ هل تقصد الزواج ؟

ــ كل شيء ، دائما أراك فى حال تأهب واستعداد ، لأى شيء ؟ وحتى متى ؟

ــ ولكن هذه هى طبيعة الحياة ..

فلوح الرجل بيده محتجا وقال :

ــ كلنا يتكلم عن الحياة بثقة كأنما يعرفها حق المعرفة ..

ــ لا مفر من ذلك ..

ــ لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها ..

ــ من حسن حظنا أنه موجود وأنه أعلم منا بما يفعل ..

فقال الكهل بعمق :

ــ الحمد لله ..

وصمتا وتكلما ، ثم صمتا وتكلما حتى آن وقت الذهاب . شعر عثمان بأنه لن يراه مرة أخرى . ولم تكن تربطه به إلا زمالة قديمة وإحساس بالواجب ولكنه وجد نحوه ــ فى لحظته ــ أسى غير قليل .

قال الكهل وهو يصافحه :

ــ أتوقع ألا تنسانى ؟

فقال بنبرة أحر من قلبه :

ــ معاذ الله ..

فقال الرجل برجاء :

ــ النسيان هو الموت .

ــ مد الله فى عمرك .

ولم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقى من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجحود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الدينى ، ومضى فى طريقه لا يرى شيئا ، ورغما عنه تركز تفكيره فى الدرجة الخامسة التى ستخلو بعد أيام .

وكانت مكانته قد تدعمت لدى الإدارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن .

ورقى إلى الدرجة الخامسة فى نفس الشهر مع نقله رئيسا للمحفوظات .

هبة قيمة تتخلق فى الفراغ المشحون بالصبر . الوثبة الجديدة وثبة حقيقية . وامتيازها الخطير أن رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات الهامة على حضرة صاحب السعادة المدير العام ليتلقى توجيهاته وينفذها فى سرية تامة . رضى الله عنه أخيرا ففتح له الباب العالى الموصل إلى الحضرة الإدارية العليا . وهى فرصة سلطانية تطالبه باستغلال جميع ما تمرس به من خبرة وثقافة ولباقة وإخلاص . ها هى الحجرة المترامية كميدان التى يحلم بأن يحكم منها ذات يوم . الحلم الذى يجب أن يتحقق ولو ضحى على مذبحه بجميع القرابين ، الحلم المضنون به على غير أهلة من الأكفاء الذين يشترونه بمسرات الدنيا الرخيصة العابرة .

وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفتها الكرستال ، وجدرانها المورقة ، مدفأتها الموشاة بالقرميد ، بساطها الأزرق الذى لم يتخيل إمكان وجود بساط فى طوله وعرضه ، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر ، والمكتب المتصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه

البلورى ، وتحفه الفضية من وراقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلى .

وتهيأت فرصة لاستراق النظر إلى المدير السعيد وهو مستقر فوق مقعده الكبير ، يطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق ، وطربوش غامق الاحمرار ، ورائحته الزكية ، وشاربه الأسود المتوسط الطول والارتفاع ، وهالة الصحة التى تطوقه ، وبدانته المتوسطة وإن لم يعرف على وجه الدقة طوله ، وتحفظه الراسخ المهيب الذى يجعل من صداقته مطلبا عزيز المنال .

ها هو يقف فى حضرته ، فى متناول أنفاسه ، فى مجال رائحته الزكية ، يكاد يسمع نبضه ، ويقرأ أفكاره ، ويستلهم رغائبه ، وينفذ — قبل البوح — أوامره ، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته ، وقرة عين حلمه الأبدى أن يجلس ذات يوم مكانه .

انحنى بأدب وورع وقال :

— صبحك الله بالسعادة يا صاحب السعادة .

فرفع إليه بصره مغمغما برد التحية ، فقال الآخر يقدم نفسه :

— عثمان بيومى رئيس المحفوظات .

فقرأ فى ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتسامة لم ترتسم على شفتيه ، فقال مستزيدا من تقديم نفسه :

— الجديد يا فندم .



سعادة المدير العام

ـــ والمترجم . أليس كذلك ؟

فقال بقلب خافق :

ـــ نعم يا صاحب السعادة .

فقال بصوت منخفض :

ـــ أسلوبك جيد ..

ـــ إنه لشرف عظيم هذا التشجيع ..

ـــ هل لديك مراسلات هامة ؟

راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات ويتلقى فى دقة التوجيهات . انحنى مرة أخرى ثم غادر الحجرة ثملا بالأفراح . فكر فى طريق عودته إلى المحفوظات بأن حمزة السويفى ـــ يتراجع ـــ فى حياته ـــ إلى الظل حتى يدركه الظلام الذى ابتلع سعفان بسيونى وأن مستقبله أصبح منذ الساعة بيد حضرة صاحب السعادة بعد الله ذى الجلال . وقال لنفسه :

ـــ احذر يا عثمان مغبة السير الرتيب ، لا بد من وثبة أو وثبات ...

وقال أيضا :

ـــ سعفان بسيونى قضى نصف مدة خدمته فى الدرجة التى أسلمته إلى المعاش !

وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للإدارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتى

إلا عن طريق حمزة السويفى ، بأن يرقى أو يحال إلى المعاش أو .. يموت !!. وامتعض من نفسه كما يحدث له كثيرا ، وابتهل إلى الله قائلا :

ــ أسألك اللهم العفو والسماح !

وتساءل :

ــ لماذا خلقنا على هذه الصورة الفاسدة ؟

قل أن يرضى عن طبيعته ولكنه يسلم بواقعها ، ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه أمواج الخير والشر ، وأن شيئا لا يمكن أن ينال من قدسيته سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرات السهلة وأحلام اليقظة .

ــ اغفر لى ذنبى إننى أحب المجد الذى بثثت حبه فى نفسى يا ذا الجلال ..

وساءل نفسه بتصميم :

ــ كيف تقنع حضرة صاحب السعادة بفوائدك ؟.. هذه هى المسألة .

كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو خزى ؟. وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة السويفى ؟، وفى نطاق الكبرياء والشموخ وإن يكن فى الحدود الرسمية بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة ؟

ــ إن جهادى شريف أما العواطف والأفكار فهى ملك لله وحده ..

إنه يؤمن بأن الله خلق الإنسان للقوة والمجد ، الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ إلا بالقوة والنضال .

وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة صاحب السعادة بهجت نور المدير العام نيشان النيل . حبر مقالة فى تهنئته نشرتها له صحيفة يمدها عادة بمترجماته . نوه فيها بالحزم والخلق والدين والإدارة والمثالية ، قال إنه مثال للمدير الوطنى الذى ظن يوما أنه لا يمكن أن يقوم مكان المدير الإنجليزى .

وعندما دخل الحجرة العصماء لعرض البريد ابتسم صاحب السعادة له لأول مرة ، وقال له :

ــ أشكرك يا عثمان أفندى ..

فقال وهو ينحنى :

ــ الشكر لله يا صاحب السعادة ..

ــ أما أسلوبك فمما تغبط عليه .

وآمن بأنه ليس بالنبيذ الجهنمى وحده يسكر الإنسان . ولكن السكر لا يدوم . وكثيرا ما يعقبه خمار . ويخيل إليه أن عجلة الأيام تزيد من سرعتها . غاية ما يذكر أن الزمان لم يكن موجودا . كانت

حارة الحسينى مكانا صرفا . لا خطورة للدرجة الخامسة فى حياة رجل يتوسط العمر . رجل يرفع رأسه دواما نحو النجم القطبى ، يحبس نفسه فى حجرته الصغيرة المكتظة بالكتب . خير ما فى حياته من طعام لحمة الرأس أو الكباب فى المواسم السعيدة . ولا يعرف من مسرات الدنيا إلا النبيذ الجهنمى وقدرية الزنجية فى الحجرة العارية .

إنه بحاجة إلى دفء إنسانى حقيقى ، إلى عروس وأسرة . لم يعد يحتمل أن يحترق فى الحياة وحيدا ..

ما أحوجه إلى أنيس فى هذا الكون المكتظ بملايين الأكوان !..

١٧

دعا أم حسنى لزيارته . صنع لها القهوة بيده على موقده الكحولى . لعلها شعرت بأنه يتهيأ للكلام فى قلق عذب . قالت برجاء :

— قلبى يحدثنى أنك ناديتنى لأمر ، يشهد الله بأننى حلمت أمس ..

فقاطعها :

— لا داعى للأحلام يا أم حسنى ، أريد عروسا .

فتهلل وجهها وهتفت :

ـــ يا ألف نهار أبيض ..

ـــ عروس مناسبة ..

ـــ ما أكثرهن !

ـــ لى شروط يا أم حسنى ، افهمينى جيدا ..

ـــ عندى البكارى والثيب مطلقات وأرامل ، الغنيات ومن هن على باب الكريم ..

فقال بصوت حاسم :

ـــ أبعدى فكرك عن حارتنا ، عن حينا كله ..

فتساءلت بحيرة :

ـــ ما هى أفكارك يا ابنى ؟

ـــ أريد عروسا من أسرة كريمة ...

ـــ عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدى .

فقاطعها بنفاد صبر :

ـــ لا تفكرى فى حينا ، عليك بالأسر الكريمة ..

ـــ تقصد ...؟

ـــ الأعيان .. كبار الموظفين .. أصحاب السلطة .

بهتت المرأة كأنما تسمع عن عالم فلكى جديد .

ـــ الظاهر أنه لا حول لك فى هذا المجال .

فقالت بيأس :

ــ تفكيرك غريب يا بنى ..

ــ ليكن ..

ــ لا حول لى كما قلت ولكنى أعرف أم زينب الخاطبة بالحلمية .

ــ عليك بها ، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت صاحبة الفضل الأول ..

وهى تضحك :

ــ أنت بخيل يا سى عثمان .

ــ يا ولية يا ظالمة ، هذا وعد ورحمة أمى ..

ــ ربنا يوفق .

ــ ليس من الضرورى أن تكون بكرا ، لتكن أرملة .. مطلقة .. عانسا .. لا يهمنى الجمال ــ ولكن لتكن مقبولة ــ ولا يهمنى السن ولا المال .

هزت المرأة رأسها فى حيرة فقال :

ــ عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا إلى الوزارة أما ..

وسكت قليلا ثم استطرد :

ــ أما الأصل فيمكن القول بأن الأب كان تاجرا مثلا ، هل يتحرون عن ذلك بدقة ؟

ــ نعم .. رحم الله والديك ..

ــ على أى حال قد يشفع لى شخصى ، ولنجرب !

ومضت الأيام مرهقة وهو ينتظر . وكلما رجع إلى أم حسنى أوصته بالصبر . تخيل أسباب التأخير وقلبه يغوص فى الظلام ، وراح يتردد على مقام الحسين .

وحدث فى تلك الأيام أن تخلف عن العمل مدير الإدارة حمزة السويفى . وعلم بأنه لزم الفراش لارتفاع شديد فى ضغط الدم . وزاد من الحرج العام أن الإدارة كانت بصدد إعداد الميزانية الجديدة . وقد عاده فى مرضه ، وجلس قرب فراشه طويلا ، وأبدى من الحزن والإشفاق ما أطلق لسان الرجل بالثناء عليه والدعاء له أن يكفيه الله شر الأيام . وتذكر عثمان فى جلسته أنه لم يزر سعفان بسيونى ، وأنه ترك أخباره تنقطع عنه كأنه رحل . وقال مخاطبا حمزة السويفى :

ــ ارتح تماما ، ولا تترك الفراش حتى تسترد عافيتك بالكامل ، ولا تقلق من ناحية العمل فإنى والزملاء فى خدمتك ..

فشكره الرجل وتمتم فى قلق :

ــ مشروع الميزانية !

فقال له بيقين :

ــ سيعد بإذن الله ، كلهم تلاميذك ويعرفون من العمل تحت رياستك ما ينبغى عمله ..

أما فى الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحى على الأقل عن مهامه

الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفى تلقاه بسخط وقلق .. كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه . وإذا بالمدير العام يصدر قرارا بتشكيل لجنة خاصة لإعداد الميزانية جعله مقررها . وتم اختياره عن دلالة لا تخفى على أحد . أجل لم يشك أحد فى كفاءته ولا فى حكمة القرار من هذه الناحية ولكن — قيل — ألم يكن اللائق أن تسند رئاستها إلى وكيل الإدارة محافظة على الشكل ؟!. أما هو فكرس كل قواه لإعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته فى توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارات الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . واقتضى العمل الاتصال المباشر بحضرة صاحب السعادة والاجتماع به ساعة كل يوم وأحيانا ساعتين ، حتى حلت الألفة بينهما مكان الكلفة . وامتد الاجتماع يوما أربع ساعات فأمر له بقهوة ، وقدم له سيجارة ولكنه اعتذر شاكرا لكونه غير مدخن . مرت أيام أترعت قلبه بالسعادة والزهو والأمل ، ورضى الرجل عن عمله فشعر برضى الله وإقبال الدنيا . وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين .

ورجع حمزة السويفى إلى مكتبه مستردا صحته فى اليوم الأخير لعمل اللجنة ، وأعلن عثمان أفراحه فعانقه داعيا له بطول العمر . قال له :

ــ كنا كالضائعين فالحمد لله على سلامتك .

وتساءل الرجل :

ــ والمشروع ؟

ــ أعد ، وكتبت المقدمة ، هما معروضان الآن على صاحب السعادة ، وسوف تطلع عليهما غدا أو بعد غد ، ولكن كيف حال الصحة ؟

ــ الحمد لله أجروا لى حجامة ، ووصفوا لى رجيما دقيقا ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

ــ ونعم بالله ..، ما هى إلا سحابة صيف ..

ألف فى خدمته الطويلة انقسام الشخصية والعذابات الأخلاقية . كما ألف الصدمات المتوقعة وغير المتوقعة . كهذه الصدمة مثلا . وجثم الفتور فى أعماق قلبه حتى اليأس . ولذلك فعندما خلت درجة رابعة فى الإدارة القانونية دفعه التوتر إلى الكلام . أول مرة تكلم فيها بلسانه بعد أن اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته . وبفضل الجو الذى خلقه العمل بينه وبين صاحب السعادة قال له :

ــ لو تعطف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد يرى أن أستغل ثقافتى القانونية فى الإدارة القانونية ..

ولكن الرجل قال بلهجة حاسمة :

ــ كلا ، الإدارة القانونية وقف على أصحاب امتيازات يحسن

تجنب التعرض لها ..

آه .. كالعروس التى طال انتظاره لها . وامتعض ولكنه قال بخشوع :

ــ أمرك يا صاحب السعادة !

ومضى نحو الباب ولكن صوت الرجل أدركه قائلا :

ــ اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات إلى الرابعة فى الميزانية الجديدة .

رجع فى خطوة واسعة واحدة وانحنى حتى كاد رأسه يمس طرف المكتب .

١٨

وثبة موفقة لا شك فى ذلك . وإذ جرى الحظ بذلك المعدل فربما بلغ المراد فى إثنى عشر عاما أو خمسة عشر ، ويتبقى له عدد لا بأس به من السنين يمارس فيه الإدارة الكبرى كصاحب سعادة . أما مهمة أم زينب فقد باءت بفشل أكيد ، لم يعد من مجال للشك فى ذلك .

ــ رئيس المحفوظات رفض بلا عناء ، مدير الإدارة ربما قبل ، أما صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ أرذل العمر !

لا حصر للأسباب التى تدعوه للزواج . منه يستمد العون ،

ويبدد وحشة القلب وعذابات الوحدة ، ويرضى ورعه الدينى الذى يرى عزوبته إثما . قدرية تلعب دورا ملطفا فى حياته المتوترة ولكنها لا تهيئ رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضاعفتها لمشاعر الإثم . العزاء الباقى هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه :

ـــ هكذا عاش الخلفاء الراشدون !

وذات يوم وهو يعمل فى المحفوظات بوغت بسعفان بسيونى يقف أمامه مهدما مهزولا كأنه شبح يودع الحياة . نهض للترحيب به خجلان من هول ما أهمله . وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة :

ـــ أى فرصة سعيدة !

فاستجمع العجوز أنفاسه بجهد جهيد ثم تمتم :

ـــ كم أوحشتنا يا رجل !

فهتف بأسف وندم :

ـــ اللعنة على العمل ، اللعنة على البيت ومن فيه ، كم أننى آسف يا صديقى العزيز .

قال بصوت شاك :

ـــ أنا مريض يا عثمان ..

ـــ لا بأس عليك ، بخير إن شاء الله ، هل آمر لك بقهوة ؟

ـــ لا شيء ألبتة ، كل شيء ممنوع ..

ــ ربنا يرد لك الصحة والعافية ..

غاص فى الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن أن تنتهى هذه المقابلة التعيسة . وصمت سعفان قليلا ثم قال بانكسار وذل :

ــ إنى فى مسيس الحاجة إلى ثلاثة جنيهات .

غص بالكلام ثم استدرك :

ــ للعلاج كما ترى ..

ارتعد عثمان . رأى أن الخطر يوشك أن يدهمه . بلا رحمة . هتف بطريقة مؤثرة كالمطارد :

ــ يا للفظاعة ، ما كنت أتصور ، ما كنت أتصور أن أرد لك طلبا ، فضلا عن هذا الطلب بالذات ، أيسر علىّ أن أسرق من أن أرفض طلبك :

فازدرد الرجل ريقه وقال بيأس :

ــ ولا جنيه واحد ؟!

ــ ألا تصدقنى يا أعز الناس ؟! والله لولا الحياء ، لولا الحياء ...

يئس الرجل تماما . غرق فى أفكار مجهولة . قام بصعوبة وهو يقول :

ــ إنى مصدقك ، كان الله فى عونك ، ربنا يلطف بنا كلنا ..

دمعت عينا عثمان وهو يصافحه . دمعة حقيقية . لا تمثيل فيها . هى تكثيف لبعض أبخرة الصراع المعذب الناشب فى أعماقه . كاد

يلحق به . لكنه لم يتحرك . تركه يذهب . رجع إلى المكتب وهو يناجى نفسه :

ــ يا للعذاب !..

وقال :

ــ كان يجب أن نقد من صخر أو حديد لنستطيع تحمل الحياة ..

وقال أيضا :

ــ الطريق طويلة جدا ، عزائى أننى أقدس الحياة ــ نعمة الله ــ ولا أستهين بها !

فى نفس الأسبوع أبلغ بنعى سعفان بسيونى !. فصدم صدمة عنيفة رغم أن الأمر كان متوقعا .

ومن شدة ألمه صاح بنفسه :

ــ كف عن التألم ، لديك من العذابات ما يكفيك .

وتساءل :

ــ إنى محسود فهل أنا سعيد ؟

وتساءل أيضا :

ــ ما السعادة ؟

ثم قال :

ــ سعادتنا الحقيقية أن الله موجود .

ثم بإصرار :

ــ إما أن نحيا وإما أن نموت !

الوقت كالسيف إن لم تقتله قتلك . بات خبيرا بقتل الوقت ولكن هل نجا حقا من سيفه ؟!. أمس خلا إليه موظف جديد شاب ليسأله النصح فى مسألة خاصة فمهد لسؤاله بقوله :

ـــ معذرة يا سيدى الرئيس ، إنما أسألك كوالـــد أو أخ أكبر !

وقع قوله من مسمعه موقعا غريبا حتى خيل إليه أنه يسخر منه !. كوالد !. حقا كان من الممكن أن يكون له ولد فى سنه . لِم لا ؟. ومع ذلك فإنه لم يهمل قط فى قتل الوقت .

ويوما قالت له أم حسنى :

ـــ أما هذه المرة فهى ناظرة مدرسة !

اهتز بسرور لا خفاء فيه . ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين أنه يريد « مصعدا » فما العمل ؟

ولم يستطع أن يقاوم حب الاستطلاع فسأل العجوز :

ـــ طاعنة فى السن ؟.

ـــ عز الأنوثة .. خمس وثلاثون سنة على أكثر تقدير ..

— أرملة أم مطلقة ؟

— عذراء كما خلقها الله ، لم يكن يسمح لهن بالزواج كما تعلم ..

ولم يجد بأسا فى أن يراها . رآها فى السيدة . مقبولة المنظر والمبنى . أثارته كما أثارته سنية من قبل . هكذا رآها وعلم أيضا بأنها رأته .

وقالت له أم حسنى فى مقابلة تالية :

— لن تكلفك مليما واحدا ..

فأدرك أنه حاز القبول . وها هى تقترح أن تجهز نفسها وتعد بيتها ولن يطالب إلا بالهين . قالت العجوز :

— الدبلة والشبكة وبعض النثريات فهل أقول مبارك ؟

— صبرك ..

— لها شرط واحد أن يكون مؤخر الصداق مائة وخمسين جنيها ...

كل شىء جميل ويوافق تماما حرصه . وهو مناسب جدا إذا كان يروم إكمال نصف دينه فقط ولكن ماذا عن دنياه ؟!. رغم ذلك غرق فى دوامة التفكير ربما بسبب شعوره بتقدم العمر . بسبب الإيحاءات المجهولة التى انثالت عليه من عالم الغيب . بسبب ما لاح له ساخرا وقاسيا وغادرا . بسبب الورود التى لم يتشممها والأنغام التى تتردد بعيدا عن تناول أذنيه . بسبب التقشف والحرمان . ومع ذلك قال لنفسه :

ـــ أى تفكير وأى تردد ؟. هراء فى هراء .. لن أجن على آخر الزمن !

وتمنى لو تنشأ بينهما علاقة ما . غير مقدسة !!. ولكنه يلقى رفضا أشد مما لقى لدى سنية . والقبول ليس سعيدا كما يتبادر إلى الذهن . فهو يقتضيه إعداد شقة وتأثيثها . وانقبض قلبه خوفا . وقال لأم حسنى ببساطة آخر الأمر :

ـــ كلا ..

فهتفت العجوز :

ـــ أنت تعنى شيئا آخر ..

ـــ قلت كلا ..

ـــ أنت لغز يا بنى .

فضحك بلا سرور .

ـــ ماذا تريد ؟.. ألا تحب جنس النساء ؟.

فضحك مرة أخرى ..

ـــ غفر الله لك ..

فقالت العجوز :

ـــ أنا حزينة يا ابنى ..

فقال لنفسه ، بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلٰهى ..

٢٠

وجاءت أنسية رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداوية طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوة من قبل . قال إنه تائه فى ضحراء قاحلة تتلظى بالنيران ، لم يفز بشىء ذى قيمة ، الأمل طويل والعمر قصير ، والماضى حقير ، رغم العواطف الشخصية الحميمة فهو حقير ، رمزه الحقيقى قبر الصدقة والسجن ، والشهيد فى أسرته استشهد فى جانب الظلم والبغى ، وهو بلا صديق ، انقطعت الصلة تماما بينه وبين أقران صباه ، له زملاء يحترمونه ويحسدونه ولكن لا صديق له ، الوحيد الذى يجالسه أحيانا ، فى صفاء خادم جامع الحسين ، والهبة الرومانسية فى حياته الجافة حجرة عارية وبغى نصف زنجية .

ـــ ما معنى هذه الحياة ؟

وهو كرس نفسه حقا لطريق الله المجيد ولكنه يغوص فى الآثام ، ويتلوث ساعة بعد أخرى ، ويبدو أنه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوة .

ـــ كأنها لعبة خاسرة !

فى الأتون المتقد ، وهو يتلظى فى جحيمه ، وفدت على



المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبير جديد ، جديد على المحفوظات والإدارة العامة بكل معنى الكلمة . كانت أول فتاة تلحق بالإدارة وبالمحفوظات بالذات . سمراء رشيقة متناسقة القسمات بسيطة الملبس . أثار منظرها ارتباكه ودهشته وعطفه وهى تقف أمام مكتبه مقدمة نفسها . دعاها للجلوس وهو يلمح رءوس الموظفين تبرز من بين صفوف دواليب شنن . إنهم يتعجبون ولا يصدقون .

— أهلا بك ..

— متشكرة ، اسمى أنسية رمضان .

— تشرفنا ، يبدو أنك صغيرة جدا ؟

— كلا ، ثمانية عشر عاما !

— عظيم .. عظيم .. وما شهادتك ؟

— بكالوريا علمى ..

— جميل ، لِم يا ترى لم تكملى تعليمك ؟

وندم على ما فرط من سؤاله . عاودته ذكريات أول يوم فى خدمته فى حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العام ، أما الفتاة فأجابت بحياء :

— ظروف اضطرتنى إلى الاكتفاء بذلك .

ولعن الظروف ولكنه تعزى باشتراكهما التاريخى فى هم مخيف واحد . قال ملاطفا :

ـــ إنك تذكرينني بنفسى ، ولكن اعلمى بأننى أكملت تعليمى وأنا موظف ، وأن الأبواب المغلقة خليقة بأن تفتح أمام الهمة العالية ..

فغامت عيناها برنوة حزن وقالت :

ـــ ولكننا نعايش مجتمعا فظا سيئا ..

وجد الأفكار « الثورية » التى يجهلها ويتجاهلها تهدد بمطاردته كالعادة فقال بإصرار :

ـــ الاعتماد على النفس خير من مهاجمة المجتمع ، الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع ، الظاهر أنك تهتمين بالسياسة وبما يسمونه بالأفكار الاجتماعية ؟

ـــ إنى أومن بذلك ..

ـــ هذا يعنى أنك لا تؤمنين بنفسك ، أنا لا أعرف إلا عزيمتى وحكمة الله المجهولة !

فابتسمت ولم تعلق بحرف فابتسم أيضا وقال :

ـــ سأعهد إليك بالوارد فهو أنسب عمل للموظف الجديد ..

ـــ شكرا يا سيدى ..

ـــ وسأنتظر منك دائما ما يجعلك أهلا للثقة ..

ـــ أرجو أن تجدنى عند حسن ظنك ..

ــ وإذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا تترددى عن إخبارى .

ــ أرجو ألا أحتاج لذلك .

وعهد بها إلى موظف ليمرنها على العمل قائلا باقتضاب :

ــ سركى الوارد ..

شعر بأن المحفوظات تثب وثبة موفقة نحو الحياة المضيئة ، وأنها لن تخلو بعد اليوم مما يحرك القلب والعواطف ، وتبددت بعض الشىء سحب الذكريات السوداوية ، وتذكر بدلا من ذلك سيدة وسنية وأصيلة ناظرة المدرسة وقدرية فقال لنفسه إن عالم النساء لا نهاية لتنوعه وعذوبته وعذاباته . وتساءل فى حيرة :

ــ أيهما الغاية وأيهما الوسيلة المرأة أم الدرجة ؟!

وقال أيضا :

ــ رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولكن من منهم عاش بلا امرأة ؟

فى مثل سنه يفكر الإنسان مرتين . قد يضيق بصحبة الكتب ويتأفف من العمل ، ويشق عليه الحرمان والتقشف ويطارده الماضى بلا رحمة . فى مثل سنه تشتد الحساسية بالعزلة والوحشة ، وبالانتظار المؤرق لمجد يتعسر . وأمس قال له حمزة السويفى ضاحكا :

ـــ ها هى شعرة بيضاء فى رأسك يا عاهل اللوائح المالية !

فزع كأنما ضبط متلبسا بجريمة ، وقال :

ـــ لعل المنظر خدعك يا سيدى المدير .

ـــ لتكن المرآة حكما بينى وبينك فانظر جيدا فى البيت ..

فتمتم منهزما :

ـــ جاءت قبل الأوان .

فقال مدير الإدارة ضاحكا :

ـــ أوبعد الأوان ، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر منك بعشرة أعوام ..

وضحك المدير طويلا ثم قال :

ـــ أمس دار حديث عنك مع بعض الزملاء ، تساءلنا بحيرة كيف تعيش ؟، قلنا إنك لا تظهر فى طريق أو مقهى أو حفل فأين تقضى وقتك ؟، وقالوا إنه غير متزوج فلماذا يعيش ؟.، وقالوا إنه لا يهتم لشئ مما يهتم به الناس فماذا يهمه حقا فى الدنيا ؟!

فابتسم فى فتور وقال :

ـــ يؤسفنى أننى شغلت بالكم ..

ـــ إنك رجل قادر وفاضل ولكنك غامض ، ماذا يهمك فى هذه الدنيا ؟

فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق :

ـــ لا غموض يا حمزة بك ، إنى رجل هوايته الواجب وقرة عينه فى عبادة الله ..

ـــ ونعم بالله ، أرجو ألا أكون قد ضايقتك ، المهم أن يرضى الإنسان عن نفسه ..

ولكن أين الرضى أين ؟!

ها هى طليعة الشيب تغزو رأسه ، والحياة المجيدة تنقضى كالحياة التافهة ، وكم يتبقى له من الزمن يا ترى ؟!

٢١

وقال له حمزة السويفى يوما فى مناقشة على هامش العمل اليومى :

ـــ السعادة هى غاية الإنسان فى هذه الحياة .

فقال عثمان بازدراء باطنى :

ـــ لو كان الأمر كذلك لما سمح سبحانه بخروج أبينا من الجنة ..

ـــ إذن فما الهدف من الحياة فى نظرك ؟

فأجاب باعتزاز :

ـــ الطريق المقدس ..

ـــ وما هو الطريق المقدس ؟

ـــ هو طريق المجد ، أو تحقيق الألوهية على الأرض !

فتساءل حمزة بدهشة :

ــ أتطمح حقا إلى سيادة الدنيا ؟

ــ ليس ذلك بالدقة ، ولكن فى كل موضع يوجد مركز إلٰهى ..

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه ــ نادما ــ إنه يظن بى الجنون ..

وتطايرت شائعة بأن حضرة صاحب السعادة بهجت نور سينقل إلى وزارة أخرى فخفق قلبه خفقة كاد يخلع لها . لقد فعل المستحيل حتى حاز ثقته فمتى يحوز ثقة القادم المجهول ؟. ولكن الشائعة لم تتحقق . ويوما سلمه مجموعة ضخمة من الأوراق قائلا :

ــ هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديو إسماعيل ، ترجمتها فى نصف عام !

نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

ــ يهمنى أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا ..

تلقى التكليف بسعادة شاملة ، وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة . وفى شهر واحد أعاده إلى صاحب السعادة فى صورة بيانية كاملة . بذلك قدم الخدمة التى تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا ، وحظى ــ عند كل لقاء ــ بابتسامة لا يحظى بها المقربون .

رغم ذلك كله ألهبه الجزع بسياطه ، ورأى الزمن يجرى حتى

توارى فى الأفق تاركا إياه وحيدا فى الخلاء مع طموحه المقدس . ومن نفاد الصبر إلى قارئة فنجان فى التوفيقية ، نصف مصرية ونصف إفرنجية ، تناولت فنجانه وراحت تقرأه وهو يتابعها باهتمام لا يخلو من خجل ويقول لنفسه إنه ما كان يجوز له أن يؤمن بهذه الخرافات . قالت له :

ـــ صحتك ليست على ما يرام ..

الصحة جيدة بلا ريب . ولكن صحته النفسية عليلة . لعلها صدقت على أى حال ..

قالت المرأة :

ـــ سيأتيك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة .

إنه لا يطلب المال وإن يكن حريصا على كل مليم يجيئه . لعلها تقصد علاوات الترقية المقدرة فى عالم الغيب .

ـــ وعدو لك سيذهب فى طريق فلا يعود منه ..

الأعداء كثيرون . يختفون وراء الابتسامات الخلابة والكلمات المعسولة . فى طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل آخر ثانية ومدير إدارة أولى . جميعهم أصدقاء ـــ أعداء كما تقضى به إرادة الحياة الطاهرة القاسية .

ـــ وفى حياتك زيجتان ..

إنه لم يوفق إلى الزواج من واحدة ، ولكن هذا هو جزاء من تدفعه

الوساوس إلى الوقوع فى أحضان الخرافات . وتذكر فى طريق عودته أنسية رمضان . فى طريق الصحة والأناقة تتقدم فنعمة الوظيفة سرعان ما تتجلى على الفقراء . هو رئيسها الحنون . تربطهما علاقة إنسانية رقيقة مهذبة يتعذر — حتى الآن تسميتها . على أى حال لم يعد يتصور المحفوظات بغير وجودها العطر .

ولما رجع إلى حجرته لحقت به أم حسنى وقالت له باهتمام أثار ابتسامته :

— ست أصيلة هانم عندى وهى ..

— الناظرة ؟

— نعم ، وهى تريد أن تستعين بك فى بعض شئونها .

أدرك فى الحال أن المرأة جاءت لتطوقه بضفيرتها . وانساق إلى المغامرة بغريزته المتطلعة . صافح أصيلة لأول مرة . كانت ترتدى فستانا أزرق يكشف عن نحرها وساعديها ، ويبرز مفاتنها . ها هى تعرض عليه نفسها مهما ادعت من أسباب حقيقية أو وهمية . وأثارته كما أثارته سنية وقدرية . إنهن نمط واحد . شهى مثير لا خير فى الزواج منه . وقالت أم حسنى :

— سأذهب لأعد لكما القهوة ..

لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال . وها هما يجلسان على كنبة واحدة لا يفصلهما إلا وسادة . أمال رأسه ليسوى شاربه

مرسلا طرفه إلى ساقها المدمجة المغروسة فى حذاء ذى كعب واطئ أشبه بكعوب أحذية الرجال .

ــ تشرفنا يا هانم .

ــ ولى عظيم الشرف .

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دل على قدرتها على مواجهة المواقف :

ــ لى استفسار من فضلك .

ــ أفندم ؟.

ــ أملك قطعة أرض نزعت ملكيتها ، أظنك تفهم هذه الشئون ؟

ــ طبعا .

ــ الطريق المزمع إنشاؤه يغطى أغلبها ولكنه يترك أجزاء لا يمكن الانتفاع بها ؟

ــ أعتقد أن التعويض عن ذلك يراعى عند تقدير الثمن .

ــ ولكن الإجراءات معقدة كما تعلم !

ــ لك أن تعتمدى علىّ ..

بقدر ما شعر بقوة شخصيتها بقدر ما يئس من إغوائها . إنها مستعدة للزواج وما جاءت فى الواقع إلا من أجل ذلك ، أما أن ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو أمرا مستحيلا . ورجعت أم حسنى ، ومضيا يحتسيان القهوة فى صمت تام ، لعلها أصلح زوجة من أكثر

من ناحية ولكنها ليست من يريد . وهبطت من السماء صورة أنسية رمضان فجلست بينهما ومحت المرأة محوا . منذ عهد السبيل الأثرى لم يتحرك قلبه كما تحرك لهذه الفتاة الصغيرة . لانت أعصابه المتوترة وصفت نفسه وتلقى من الخيال نسمة منعشة أذكت أسمى عواطفه . ولما ذهبت المرأة وجد أم حسنى تنظر إليه باهتمام تريد أن تطمئن على الوظيفة الحيوية التى ترعاها بعملها وإيمانها . باتت العجوز تعبد الزواج والإنجاب والأفراح وتسبح لله فى معجزة الحب التى أبدعها . ولما طال سكونه قالت برجاء :

— لعلك غيرت رأيك ؟

— لماذا ؟

— ألم تر أنها مثل فلقة القمر ؟

ولبث جامدا رافضا ممتنعا عن تناول يدها الحنون . فقالت باستياء :

— قالوا فى الأمثال ..

غادر الحجرة قبل أن يسمع المثل . يا للخسارة . إذا لم يسعفه زواج قيم فقد يتبدد سعيه ويهدر أمله فى وسط الطريق . وحياته أصبحت مثار تساؤلات وانتقادات لا حصر لها فأناس يتساءلون لِم لم لا يتزوج وينجب ويألف ويؤلف ؟، وأناس يتساءلون كيف ينحصر فى ذاته متجاهلا الأحداث التى تقع من حوله فينفعل بها المواطنون

حتى الموت ؟. وما هى الهموم التى تشغلهم وتستحوذ على أفئدتهم ؟ إنها تتطاير مع أحاديثهم الصاخبة وتعطل أعمالهم . دواما يتحدثون عن الأولاد والأمراض والطعام ونظام الحكم وصراع الطبقات والأحزاب والحكم والأمثال والنكات . إنهم لا يحيون حياة حقيقية ويفرون من واجبهم المقدس . يجفلون من الاشتراك فى السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت وتحقيق كلمة الله المضنون بها على غير أهلها .

٢٢

جاءت أنسية رمضان لعرض ميزان البريد الشهرى . كان صباح يوم من أيام الخريف والجو الرطيب يتسلل إلى حنايا النفس بالأسى العذب . نقل بصره بين الجدول الذى يراجعه وبين أصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب . خيل إليه أن شيئا ما يتحرك فى إحدى يديها . يتحرك ويقترب فى زحف رشيق كأنه كلمة سر . يقينا إنها علبة صغيرة دستها بخفة تحت السومان بعد توكدها من رؤيته لها .

ـــ ما هذا ؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزيا مع الحذر الذى اكتنف الحركة من أولها . رفع السومان قليلا فرأى علبة معدنية مفضضة

بحجم نصف الكف . تساءل مرة أخرى :

ـــ ما هذا ؟

همست بوجه كالأرجوان :

ـــ هدية بسيطة ..

ـــ هدية ؟!.. ولكن ما المناسبة ..؟

ـــ مناسبة سعيدة ..

بذهول وتشتت من شدة الانفعال :

ـــ حقا ؟

ـــ ألا تتذكر ؟

قال رغم أنه تذكر :

ـــ ماذا ؟

ـــ اليوم عيد ميلادك !

تلقى موجة مترعة بنشوة الفرح . اليوم عيد ميلاده أو تاريخ ميلاده على الأصح . ولكنه يوم يمر كالأيام ، ربما تذكره قبل حلوله بأيام أو بعد انقضائه بأيام أو حتى فى ذات اليوم دون أن يكون لذلك أى أثر اللهم إلا مضاعفة الجزع على المستقبل . لم يحتفل به أبدا . لم يعرف ذلك التقليد ، ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هى أنسية تبشر بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناورتها الطاهرة فى التوادد وقدرتها البارعة فى فتح أبواب الرحمة .

ــ الحق أنى لا أعنى بتذكره ..

ــ شيء غريب ..

ــ ولم كلفت خاطرك بذلك ؟

ــ تحية متواضعة جدا .

ــ إنى عاجز عن شكرك .

ــ لا داعى لذلك مطلقا .

ــ كم أنك رقيقة مهذبة ولكن كيف عرفت تاريخ ميلادى ؟

وضحك ثم قال مستدركا :

ــ آه .. نسيت .. اطلعت على ملف خدمتى الإدارى وفضحت سنى ؟!

ــ إنه سن العقل والنضج ..

مد لها يده فتصافحا . ضغط على يدها الرقيقة كغشاء من حرير . انثالت عليه الأفكار المعذبة طيلة الوقت . سيرد الهدية بأحسن منها فى عيد ميلادها الذى سيعرفه من ملفها الإدارى أيضا . ورغم سعادتها المشرقة تمنى لو أنها اختارت وسيلة للتحية لا علاقة لها بالنقود ، فإنفاق النقود يؤلمه ويخل بميزان حياته . ولكنه لم يهتم لذلك طويلا . إنه ينزلق فى هاوية ، يطير نحو المجهول ، مفعم القلب بالمسرة والحنين . وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا . وماذا بعد ذلك ؟. هل يتفق وطريقه الأوحد ؟. إنه

يواجه ما هو أعظم من موقف دقيق عابر مفعم بعبير ساحر ، إنه يواجه المجهول والقدر . إنه يطرق الباب الذى يوقفون وراءه الزمن أو يرجعونه خطوة إلى الوراء . وثمة أنباء تردد أن ارجع وإلا هلكت ولكن لم تستجب له أذن ولا قلب .

وقفت فى اليوم التالى قبالته تراسله بنظرات تفيض بالطاعة والعذوبة . حرقت الحرارة رأسه وعنقه . انجذبت أصابعه إلى ملامسة أصابعها فوق الدوسيه المبسوط بينهما . أفضى إليها بتوجيهات مدغمة لا معنى لها . وفتشت عيناه المكان بحذر . مال رأسه حتى لثم فاها . تراجع إلى مقعده وهو ينتفض ، يرتعش ، يحترق ، ثملا بخمر الحياة والخوف من المجهول .

٢٣

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة . تم نتيجة لتيار من الاستسلام لا يقاوم وبأمل فى النجاة آخر الأمر . سماه تدهورا ولكنه كان محفوفا بالسعادة . ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هى حديقة الأزبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحدق به الأعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهى بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة ، خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض

الترام إليها حقولا وخلاء . ومشيا جنبا لجنب يستمتعان بحياة « حقيقية » فى الساعات السابقة لميعاد الإغلاق . لم يكن رأى الحديقة منذ زارها فى رحلة مدرسية . ولم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال . ما يفعل وما لا يفعل . سارا صامتين سعيدين ولكن ثمة إحساسا غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم . ودفعا لارتباكه ولمشاعره المحبطة أبدى إعجابه بالأشجار والقناطر والجبلاية والجداول والبحيرات وبأنواع شتى من الحيوان . ولبث مقتنعا بأنه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد ، وبأنه يحاول الهرب بعد فوات الأوان . وسارت إلى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة ، مرفوعة الرأس ، مسددة النهدين ، يوحى منظرها بأنها مندفعة فى مجرى من المطالب لا أفق له ، وأنها تلتهم فى نفسها أجمل أسرار الحياة . وتلاقت عيناهما فقرأ فى ألقهما البراءة الناصعة والمكر العذب وسيالا من الرغبات المجهولة . قالت محتجة :

— حتى وأنا موظفة لا أستطيع أن أخرج إلى مثل هذا اللقاء بسهولة ..

فندت عنه نبرة أبوة مضحكة وهو يقول :

— لا تغضبى من أجل ذلك يا عزيزتى ..

— ولكنه غير طبيعى ومهين ..

ـــ ترجمة غير دقيقة لعواطف الأمهات والآباء .

ـــ لا أعتقد أنك تؤمنين بذلك ..

ـــ حقا ؟!

فضحكت فى ثقة كاملة ثم قالت مستدركة :

ـــ لو عرفت ماما أننى سألقاك لما مانعت فيما أعتقد .

فقال بقلق :

ـــ ولكنها لم تعرف ؟

فعادها الضحك ، وسكتت قليلا حتى جف ريقه تماما ، ثم قالت :

ـــ اللقاء سر كما اتفقنا .

ـــ طبعا يا عزيزتى .

ـــ الحق أنى غير مقتنعة ..

واضح جدا أنها تود أن تعمل فى النور . وما يعنيه ذلك واضح أيضا .. ترى هل بات تحت رحمتها ؟. هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس فى مخططه ؟. هل تحاصره عناصر هدم تبدد بصفة نهائية حلمه الوحيد المقدس الممتنع ؟.. وتحدى من خلال خواطره المخيفة المجهول فأنذره بالقتل ، حتى خجل من أفكاره وهو يلحظ الغزال الأسمر الذى يثب متأبطا ذراعه فى فرحة تباركها السحائب السابحة فى سماء الحديقة . وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه ، وهادن آماله

الملحة ، ليذوب فى المفاتن المشرقة ، ويتذوق السعير المشتعل فى جوفه . ووجد أن كوعه يلامس جسدها اللدن ، ويتلقى من مجاهيله الفتية إشعاعات من السحر ، تفرس المكان حوله بنظرة متلصصة آثمة ، ثم لثم خدها ، وعنقها ، ثم التقت شفتاهما . قال بصوت لم يعرفه :

ــ أنت فاتنة يا أنسية .

فابتسمت فى حياء وسعادة فقال بحرارة :

ــ أود أن ..

وسكت وهو يتنفس بصوت مسموع فتساءلت :

ــ هه ؟

ــ كأننى أعرفك منذ الأزل ..

فابتسمت فى رضى وإن طالبت عيناها بالمزيد . قال :

ــ ما أجمل المكان . كل شىء ينطق بجمال صارخ ..

ــ أنت تحب الطبيعة !

وقع القول من أذنه موقعا غريبا وساخرا بقدر بعده عن واقعه . قال :

ــ أنت التى جعلت كل شىء جميلا ..

ــ لا تبالغ ، أتحب أن أصارحك بشىء ؟

ــ جدا !



الحقيقة الوحيدة المسلم بها هى أنك فاتنة ..

ـــ تبدو عادة غير مهتم بشيء .

ـــ حقا ؟.. وهل صدقت ما يبدو ؟

ـــ لا أدرى ، ولكننى شعرت بأنك لغز بقدر ما أنت طيب ..

ـــ لا معنى لذلك كله ، الحقيقة الوحيدة المسلم بها هى أنك فاتنة ..

ـــ وبعد ؟

ـــ وما بيننا يجب أن يبقى إلى الأبد مهما يكن المصير !

ـــ المصير ؟!

ـــ ألم يخبرك الملف الإدارى بشيء غير طيب ؟

ـــ أبدا .

ـــ أنت أجمل شيء فى حياتى ..

فقالت بهدوء واستسلام :

ـــ وأنت كذلك ..

فلثم خدها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوة وهمس :

ـــ ما أشد حيرتى بين ما أريد وما أستطيع .

ـــ هل تريد شيئا ولا تستطيعه ؟

ـــ الدنيا مليئة بالرغائب الممتعة ..

ـــ حدثنى عما يخصنى أنا ..

لها حق . ما زال فوه يندى بقبلتها . ما زال كوعه يلامس فتنتها

الطرية ، وهما يختالان أمام الفيل الذى يرفع خرطومه تحية لهما .

ــ ليكن ما بيننا سرا .

ــ لماذا ؟

ــ كيلا يسىء أحد بنا الظن .

ــ ولماذا يسىء بنا الظن ؟

ــ هكذا الناس .

ــ لا سوء بيننا .

ــ ولكن هكذا الناس يا عزيزتى .

ضحكت بمرح وتساءلت :

ــ أدعوتنى يا أستاذى لتعظنى ؟

ــ دعوتك لنتعارف ولأتوكد من أن قلبى على حق .

ــ وماذا كانت النتيجة ؟

ــ آمنت بأن القلب خير دليل !

تساءل طيلة الطريق لِم لم يعترف لها بحبه صراحة ؟. لِم لم يطلب يدها ؟. وعلى فرض أنها ستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له فى محراب الحياة قبلة جديدة أليست هى أقدر على إسعاده من النجم القطبى ؟!.

٢٤

جاءت أصيلة حجازى « الناظرة » بحجة السؤال عن نتيجة مسعاه . بذلك أخبرت أم حسنى وهى تدعوه إلى شقتها . كان يعانى من همومه الثابتة بالإضافة إلى الحب الذى غزاه ليبلغ بحدة الصراع فى نفسه درجة الجنون . لذلك رحب بزيارة أصيلة حجازى ليهرب من نفسه ولو ارتكب فى سبيل ذلك حماقة مأمونة العواقب . كان بحاجة إلى الهرب ولم تكن قدرية فى متناول يده كل يوم . صافح الناظرة . جلس وهو يقول :

ـــ مسألتك تسير فى طريق الحل ..

سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمى على أوتار فستانها المنقوش بالورد . وتساءلت وهى ترنو إليه بمودة :

ـــ هل أنتظر طويلا ؟

رأت أم حسنى أن تذهب لإعداد القهوة فركبه تصميم جنونى على حسم الموضوع ، وتوجيه ضربة غير متوقعة مستهينا بالعواقب . قال :

ـــ لن تنتظرى طويلا ..

ـــ بفضلك .

ـــ الحق أن كل شيء يتوقف على قوة أعصابك .

ـــ الظاهر أنه ينبغي أن أنتظر بعض الوقت ؟

فقال بنبرة جديدة تماما كأنما يفتتح بها موضوعا جديدا لا صلة له بما قبله :

ـــ اسمحى لى أن أصارحك بإعجابى !

فغضت بصرها موردة الوجنتين فقال :

ـــ إنه إعجاب صادق ، إعجاب رجل بامرأة ، أنت تفهمين ذلك ..

فلم تنبس ولكنها تبدت سعيدة وعلى وشك دخول الجنة ..

ـــ ولكن يجب الحذر ، يلزم المصارحة بأمر آخر لعله لا يروقك ..

لحته مستطلعة فقال :

ـــ فكرة الزواج مستحيلة !

راقبها وهى تتحول إلى رماد ثم قال بجرأة وبلا رحمة :

ـــ عندى ألف سبب وسبب والدنيا أسرار ..

تساءلت بصوت مريض :

ـــ ماذا دعاك لمصارحتى بذلك ؟

فقال بلهجة مؤدبة وهو يمعن فى قسوته :

ــ لسنا مراهقين فلنتكلم كراشدين ولنبحث عن سعادتنا بإخلاص وشجاعة ..

ــ لا أفهم شيئا .

ــ حسن ، إنى معجب بك ولكنى أعزب أبدى .

ــ ولماذا تقول لى ذلك ؟

ــ ربما وجدت عندك حلا للحال المستعصية .

فقالت باستياء شديد :

ــ إنك تجرح كرامتى بأسلوب غير إنسانى ..

ــ اعفى عنى ، إنى أصارحك بدافع من عذاب شديد ..

لاذت بالصمت مقطبة فقال :

ــ يمكن أن تهبنا الشجاعة سعادة لا يستهان بها .

ــ ماذا تقصد ؟

ــ ألا يكفى أن أتكلم بالإشارة ؟

ــ لا أظن أنى فهمت قصدك ..

فقال بقحة لم يعهدها فى نفسه من قبل :

ــ يلزمنا مكان آمن نلتقى فيه .

هتفت :

ــ عثمان أفندى !

فقال بدون مبالاة :

ــ سيكون مأوى رحيما لاثنين فى حاجة إلى الحب والمعاشرة ..

قامت غاضبة وهى تقول :

ــ إما أن تذهب أو أذهب أنا ..

ــ سأذهب ولكن فكرى بالأمر بروية وعقل ، ولا تنسى أننى رجل فقير !!

٢٥

لم تعد شعرة بيضاء واحدة يتعذر اكتشافها . كل فترة تطل شعرة جديدة بنظرة بيضاء باردة تنذر بإيقاع جديد للحياة . لعبة طارئة ، يتجرعها الإنسان بلا استساغه ، ثم يجد نفسه وجها لوجه مع الحتم المؤجل . ويلقى نظرة على الحياة شاملة ، يزن أعماله ، يقيم ثماره ، يتلقى أنفاس المجهول بامتعاض ، يتوثب أكثر للصراع ، يسلم بالهزيمة ، ولكنه يأمل أن تحل مقدسة . لا خطوة قريبة فى سلم الترقية ، مدخره يتصاعد،توتره يشتد ، جهده يتضاعف ، علاقته بأنسية تتوطد ولكن فى حذر ، أما قدرية فتستحق أن توصف برفيقة العمر . فى أعقاب صلاته يخاطب ربه :

ــ ما الحياة بغير وجودك يا رب .

ولكن يبدو أن الآخرين لا يتماسكون مثله ، فقد دق جرس

التليفون ذات يوم فإذا بالمتحدثة أصيلة حجازى الناظرة :

— أشكر لك وساطتك المثمرة .

— العفو يا فندم .

— وكيف حالك ؟

— عال . الحمد لله .

— إنى سعيدة بسماع ذلك ..

— شكرا .

— ربنا لا يحرمنا منك .

— كلك إنسانية .

ومضت ثوان من الصمت ثم واصلت :

— ولكن لى عليك عتاب .

— لا سمح الله .

— تركتك آخر مرة غاضبة ، ألا تذكر ؟

— آسف ، لم يوجد سبب للغضب .

— أتعتقد ذلك ؟

— نعم .

— ولكنك لم تسأل عنى ؟

— آسف ، لم أعرف رقم تليفونك .

— ولكنى عرفت رقم تليفونك .

ـــ أكرر الأسف .

ـــ تمنيت أن تلطف الموقف بكلمة حلوة ..

ـــ إنى على أتم الاستعداد .

ـــ حقا ؟

ـــ بكل توكيد .

ـــ كيف ؟

ـــ لنتفق على ذلك !

وهى تضحك ضحكة مكتومة :

ـــ أوَما زلت تشكو الفقر ؟

ـــ إنه قدر لا مفر منه .

ـــ من حسن حظنا أن عندى من المال الكفاية .

ـــ ربنا يزيدك .

ـــ هل تتوقع أن أصارحك أكثر من ذلك ؟

ـــ إنى على أتم الاستعداد !

ـــ عظيم .. ليقم كل منا بما يخصه !

ما هو بالاستسلام ولكنه الانهيار . يستطيع أن يتخيل الواقع وراءه . العمر بها يتوسط ويميل نحو المنحدر ، وهى تعانى الوحدة وترتعد أمام الشيخوخة المقبلة ، لا شباب ولا جمال حقيقى . ثمة معركة لم يشهدها ولكنه يرى عواقبها المحزنة . ماذا يفعل ؟. إنه يخاف

أنسية ولا رغبة له حقيقية فى أصيلة ، يتمنى فى لحظات يائسة لو يموت قلبه وتخمد شهوته لتطمئن نفسه فى مسيرتها المضنية . وقال لنفسه فى أسى :

ـــ إنى أعذر من يظنون بى الجنون !

٢٦

متى وكيف يفرغ للبحث عن شقة وتأثيثها ؟. ترك الأيام تمر وهو لا يفعل شيئا . أهمل الموضوع جملة وتفصيلا حتى وجدها ـــ أصيلة ـــ تقف أمام مكتبه !. ابتسم مرحبا وهو يلعنها فى باطنه . قالت :

ـــ معذرة عن جرأتى ..

فابتسم صامتا . فقالت :

ـــ لم يعد التليفون يكفى كى أفهمك ..

فقال بجدية تناسب مكان العمل :

ـــ واضح أن الفراغ معدوم فى هذه الأيام .

ـــ ماذا فعلت ؟

ـــ لا شىء .

ـــ أبدا ؟

ـــ لم يسمح العمل بدقيقة ، صدقينى ..

كانت تتكلم بجرأة أشبه باليأس ، حال من نفد صبره واشتدت مخاوفه . قالت :

ـــ توقعت أن أجدك أكثر حماسة ..

ـــ الرغبة متوفرة أما الوقت فلا وقت عندى .

ـــ توجد شقة فى روض الفرج ..

ومدت يدها بورقة مطوية واستطردت :

ـــ إليك العنوان ، عاينها بنفسك واشرع فى تأثيثها .

ثم بنبرة إغراء وابتهال :

ـــ أرجو أن تعجبك وأن تكون قدم السعد ..

رأى نارا تقترب وهى تصفر . وعقب اختفاء المرأة فكر بالليالى الطويلة التى ستلحق بليالى ألف ليلة وليلة ، لا الليالى التى تنفق فى الدراسة والترجمة وخدمة حضرة صاحب السعادة ، قربانا على طريق المجد الذى اختاره منذ أول يوم كرمز متاح للأشواق اللا نهائية . فترت رغبته فى المرأة لشدة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفظ . إنها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وآماله المقدسة الموصولة بسر كلمة الله العظيم . لن يسمح لقوة أن تقتله إلا الموت نفسه باعتباره سرا من أسرار الله مثل مجده الملهم ، وما دامت الزوجة المجهولة التى سعى إليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأرامل والعوانس .

وسمع ذات ليلة نقرا على باب حجرته . ذهل عندما رأى أصيلة وهى تتسلل إلى الداخل متعثرة فى خجلها وذلها ، قالت بارتباك :

ــ صح عزمى على المجىء ، وقلت لنفسى إذا لمحتنى عين قصدت شقة أم حسنى كأنما جئت أصلا لزيارتها ..

وجلست على الكنبة وهى تلهث فقال ملاطفا :

ــ فكرة طيبة ..

ــ هل ضايقك حضورى ؟

فقال والنشاط يدب فى أعماقه :

ــ بل سرنى فوق ما تتصورين ..

ــ ولن تلبث أم حسنى حتى تنام ، هل يكدرك أن تشك العجوز فيما حصل ؟

ــ ألبتة ..

وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أى أثر للكبرياء ، محض عاشقة مهدرة الدفاع . وسألته برقة ورجاء :

ــ ماذا فعلت ؟

أفاق تماما من الدهشة . صدفت نفسه عن أى موضوع وتركزت فى الرغبة المتجسدة فى صورة امرأة مستسلمة . تناول يدها البضة الباردة بعد أن شفط القلب المتقلص الدم من الأطراف . وضغط

عليها ضغطات متوترة باعثا برسائله الخفية . لم تتوقع ذلك أو بذلك تظاهرت . أرادت أن تسحب يدها فلم يسمح لها فقالت :

ــ ماذا فعلت ؟

ــ سنناقش ذلك فيما بعد ..

ــ ولكنك لم تحاول الاتصال بى ؟

مال نحوها حتى قبل خدها وهمس فى أذنها :

ــ فيما بعد .. فيما بعد ..

ــ ولكنى جئت لذلك .

ــ سيكون لك ما قصدت ولكن فيما بعد .

همت بالكلام ولكنه سد فاها بقبلة غليظة وطويلة وهو يقول بحدة :

ــ فيما بعد ..

وأعلن لحن من الألحان اللا نهائية للطبيعة عن تغريده المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة . وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا إلى نوم أبدى ، مخلفا وراءه صمتا مريبا وراحة فاترة مشبعة بالأسى . رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت فوق الكنبة معرضة قميصها وحبات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العارى . نظر إلى لا شىء لا ينشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه فى الحياة الدنيا . وحانت منه التفاتة إليها فأنكرها كلية .

كأنها شيء غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحرى الذى جره إلى السعير ، شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هى إلا تمرين على الموت ، والبعث ، وإدراك مسبق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدى من لمحات خاطفة عن ذاته اللا نهائية . ودرجة المدير العام آية أخرى ولكنها تجلى للإرادة الشامخة لا للاستسلام العذب !. وحمدا لله فقد تحصن بالبرود العاقل والقاتل أيضا . وها هى المرأة ترغب بلا شك فى العودة إلى موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تتمنى لو يبدأ هو . ولما يئست نظرت إليه بابتهال وأسى وغمغمت :

— نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة ، ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية . إنها تريد أن تهدم البناء الذى يشيده حجرا على حجر . سألت :

— ماذا قلت ؟

ركبه عنف طبعه المستتر المستمد من أعماق حارته قال :

— لا شيء .

— ولكنك فعلت شيئا بلا ريب ..؟

— أبدا .

— ألم تعاين الشقة ؟

ـــ كلا .

فاسود وجهها من الحزن وقالت :

ـــ معذرة .. هل ينبغى أن أضع النقود بين يديك ؟

ـــ كلا .

ـــ الحق أنى لا أفهمك ..

ـــ إنى واضح جدا .

ـــ ماذا تعنى !.. لا تعذبنى من فضلك .

ـــ ليس فى نيتى أن أفعل شيئا ..

فقالت بنبرة مرتعشة :

ـــ اعتقدت أنك وافقت ووعدت ..

ـــ ليس فى نيتى أن أفعل شيئا ..

ـــ إذا لم يكن لديك وقت الآن ..

ـــ لا وقت لدى .. ولن أجده فى المستقبل ..

تنفست أصيلة بصعوبة وقالت بصوت متهافت :

ـــ صدقت أن شعورك مختلف ..

فاعترف قائلا :

ـــ لا خير فى ، هذه هى الحقيقة ..

تراجعت كأنما طعنت . ارتدت فستانها فى عجلة . ولكنها انهارت على الكنبة مرة أخرى فى إعياء أسندت معه رأسها إلى كفها

وأغمضت عينيها حتى توقع أن يغمى عليها . دق قلبه بعنف أيقظه من فتوره وقسوته . لو وقع ما ليس فى حسبان فربما تعرض لفضيحة منذرة بأوخم العواقب . الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟!. أوشك أن يغير سياسته كلها ، أن يخاطر بكذبة جديدة ، ولكنها تحركت فى آخر لحظة . قامت بشىء من الصعوبة ، مضت نحو الباب بهدوء وأسى ، ثم اختفت عن نظره . تنهد فى ارتياح عميق . قام إلى النافذة ينظر إلى الحارة شبه المظلمة حتى رأى شبحها يمرق من الباب ؛ ثم يوغل نحو طرف الحارة الموصل إلى الجمالية ، وسرعان ما ذابت فى الظلام تماما .

وقال لنفسه إن أحدا لا يعلم الغيب ، ولذلك يتعذر الحكم الشامل على أى فعل من فعالنا ، بيد أن تحديد هدف للإنسان يعتبر هاديا فى الظلام وعذرا فى تضارب الحظوظ والأحداث ، وهو مثال على ما يبدو أن الطبيعة تترسمه فى خطواتها اللا نهائية .

٢٧

أما أنسية رمضان فهو يحبها . عليه أن يعترف بذلك أمام ضميره وأمام الله . منذ عهد السبيل الأثرى لم يصدر عن قلبه مثل هذا اللحن العذب . ولذلك فعليه أن يخشاها أكثر من أى امرأة أخرى فى الوجود . وهى أيضا تحبه مما يضاعف من خطورة الأمر . العروس التى لا تدفع إلى الأمام ترجع إلى الوراء . ولعله كان يتزوجها بلا تردد لو أن الذى بينه وبين درجة حضرة صاحب السعادة خطوة واحدة ، أما والحال على ما هو عليه فلن يجنى من الزواج سوى المتاعب والهموم اليومية التى تستهلك القوى البشرية فى غير ما خلقت له .

وجاءه يوما حسين أفندى جميل ليعرض البريد كالمعتاد فلما وقع عليه بتوجيهاته لم يذهب كالمتوقع . إنه شاب من موظفى المحفوظات عمل تحت رئاسته خمس سنوات متتابعة وعرف بالمواظبة وحسن السلوك .

ـــ أتريد شيئا ما يا حسين أفندى ؟

إنه مضطرب بصورة واضحة ، ويريد أن يتمخض عن شىء ، أى شىء ؟

— ما لك ؟.. أهو أمر يتعلق بالعمل ؟

اقترب الشاب أكثر كأنما ليضمن عدم وصول صوته إلى الآخرين ، وقال :

— يوجد شيء يا حضرة الريس .

— ما هو يا بنى ؟

— آسف ، ولكن لا بد من الكلام .

— عظيم .. إنى مصغ إليك .

وسكت ليتأهب ثم قال :

— الأمر يتعلق بالآنسة أنسية رمضان .

فيما بعد قال لنفسه إنه لم يسمع الاسم أو أنه سمعه ولم يفقه له معنى . قال بذهول :

— هيه ؟

— أنسية رمضان !

— زميلتك ؟.. ماذا عنها ؟

فقال بصوت لا يكاد يسمع :

— الحق إنى أحبها ..

فقطب عثمان وقلبه يترنح . تساءل مستنكرا :

— وما شأنى أنا بذلك ؟

— أردت أن أخطبها ..

ـــ كلام معقول ولكن ما شأنى أنا ؟

فأطرق وهو يتمتم :

ـــ ولكن سعادتك ..

ارتعدت مفاصله . رمقه مستطلعا فى استسلام :

ـــ ماذا عنى ؟

ـــ سعادتك تعلم بكل شىء ..

ـــ أى شىء من فضلك ؟

ـــ الحق أنه لولاك لتقدمت لخطبتها ..

أيقن أنه هلك . لم يعد لشىء قيمة . ولا الحياة نفسها . تساءل :

ـــ لولاى ؟

فقال الشاب بوجوم :

ـــ شاهدت كل شىء ، هنا وفى الخارج !

بقوة اليأس نفسه توثب للدفاع المستميت . لم يحزن لحبه الضائع بقدر ما خاف على « مركزه » . قال :

ـــ أنت شاب سيئ الظن ، ماذا شاهدت ؟، ماذا شاهدت يا مسكين ؟، ولكن هكذا هم المحبون ، طالما عاملتها كابنة من صلبى ، علاقة هى البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدرى ولا تقصد !!

فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

ـــ إنى أعرف متى وكيف أكتم أحزانى وأحافظ على سمعة من أحبهم !

فقال وهو يتنهد :

ـــ أحسنت .. أحسنت ..

ثم وموجة من الأسى تجتاحه :

ـــ سلكت سلوكا خليقا بالرجال ..

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان . قال :

ـــ مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب ..

مضى عنه معذبه . بقى وحده مع حزنه . وجسد الحزن وتهول فصار كالقدر نفسه . وأعاد إليه ذكرى حزنه القديم فى الليالى الطويلة . وقال لنفسه إن الحياة لو تقيم بحظها من السرور فإن حياته تعتبر ضياعا وهباء . لم يقتضينا الجلال هذا الشقاء كله ؟!.

٢٨

دعا أنسية إلى مقابلته فى صحراء الهرم صباح الجمعة . هيأ للقاء تلك المرة بحذر أشد من المعتاد ، فدس لها ورقة سمى فيها الميعاد وخط السير على أن يذهب كل منهما منفردا . كان صباحا من أصابيح الشتاء الجاف البارد ولكن أشعة الشمس كستها كساء دافئا ومنعشا . وكان يرنو إليها طيلة الوقت بحزن صادق رغم اقتناعه بأنه يقوم أساسا بتمثيل دور قاس وقذر . ومن أول الأمر بدت الفتاة قلقة على غير عادتها ، وقالت له :

ــ شعرت بشيء غير عادى فانقبض قلبى ..

فقال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل فى معرفة شئونها الصميمة . وأنه لو كان للإنسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الآن . واشتد حزنه وهو يقول :

ــ الحق أن الأمر يستحق التفكير .

ــ أى أمر تقصد ؟

ــ علاقتنا الحميمة المقدسة .

ــ ماذا عنها ؟

— لعلك عجبت من صمتى ، ناقشنا كل شىء إلا الجوهر ، ولم تدركى أننى كنت أحترق وأتعذب طيلة الوقت ..

فلمست ذراعه بإشفاق وقالت :

— أعترف لك بأن قلبى يزداد انقباضا !

— وأنا أعترف بأننى رجل أنانى .

فرفضت ذلك بإصرار قائلة :

— كلا ، لست أنانيا على الإطلاق .

— أنانى بكل معنى الكلمة ، وبسبب أنانيتى شجعتك وأوهمتك فتمادينا إلى ما لا نهاية ، لن أغفر لنفسى ذلك أبدا .

— لم تفعل إلا ما هو نبيل وطيب !

— لا تدافعى عنى ، لعلك تساءلت كثيرا متى يتكلم هذا الرجل ، ماذا يريد منى ؟ حتى متى نتلاقى ونفترق بلا تقدم حقيقى ، هل يتسلى بى ؟!

— لم أظن بك سوءا قط !

— أنا نفسى طرحتها مرات عديدة ، ولكن غلبنى الاستسلام الوهمى للسعادة فلم أحسم الأمر قبل أن يستفحل ، وكم صممت على مصارحتك بالحقيقة ثم أضعف وأستسلم !

تساءلت بصوت يدل على الخيبة :

— تصارحنى بماذا ؟



وأنا أعترف بأننى رجل أنانى

ــ آه .. لِم لم أعرض عليك الزواج ؟

اختلجت عيناها وهى تسمع الكلمة المحبوبة ، نظرت إليه بإشفاق ، تحولت عنه متطلعة للمجهول وكأنها تصلى صلاة صامتة لدفع البلاء .

ــ طبعا ساءلت نفسك عن ذلك وإلا فما معنى الحياة ؟

أطرقت كأن رغبتها فى معرفة المزيد قد فترت لعدم توقعها أى خير أما هو فواصل قائلا :

ــ إنى مريض ..

ــ لا ..

ندت عنها بخوف صادق فقال :

ــ لا أصلح للزواج !

حدقت فيه بذهول فمضى :

ــ لا يغرنك منظرى فمرضى ليس فى القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماما عن الزواج ..

أطرق كالمحزون فسمع تنهدة حادة مزقت قلبه . أوشك أن يتحرر من كافة التزاماته وأن يكب على قدميها بشفتيه وأن يمضى بها إلى المأذون ، ولكن القوة الأخرى صدته وجمدته .

ــ لم أهمل ، ذهبت إلى أكثر من طبيب ، لم أفقد الأمل ولولا ذلك لصارحتك من زمن بعيد ، ولكن لا فائدة ، لا يجوز أن أستأثر بك

أكثر من ذلك وإلا قضيت على مستقبلك إلى الأبد !

— ولكن كيف أستقبل الحياة بدونك ؟

— أنت صغيرة ، جرح الشباب سريع الالتئام .

— لا أصدق ، إنه كابوس .

— لا يجوز التمادى فى الخطأ بعد ذلك .

— لا أصدق ..

— كل مصيبة غير متوقعة فهى لا تصدق ولكن الحياة تبدو أحيانا سلسلة من المصائب غير المتوقعة ، ولكن عليك أن تهتدى إلى سبيلك قبل ضياع الفرصة ..

فتمزق صوتها بالجزع وهى تسأله :

— ماذا تريد ؟

— أن نكف عن السير فى طريق مسدود !

— لا أستطيع .

— لا بد مما ليس منه بد ، فمن الجنون أن نستمر ..

وتجنب النظر إليها . كان قد نفذ خطته حتى النهاية بنجاح وإحكام. وبنجاحها الوحشى وجد نفسه فى الفراغ منفردا بعذاب أليم ، مكللا بعار الجحيم ، بلا إيمان ولا عزاء . وقال لنفسه إنه لا نجاة له إلا بالجنون . الجنون وحده هو الذى يتسع للإيمان والكفر ، للمجد والخزى ، للحب والخداع ، للصدق والكذب ، أما العقل

فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟.. كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه فى الوحل ؟!

وبكى طويلا فى الليل ..

٢٩

بدا أن ظلمة السحب تنضح بشعاع يهفو خلفها . فقد علم بأن أنسية رمضان خطبت إلى حسين جميل . سعد بالخبر باعتباره بشير النجاة وقال لنفسه :

ـ أستطيع الآن أن أحزن على الحب الضائع ببال رائق لا تعكره المخاوف ، أستطيع أن أنهل من العذاب حتى أستنفده وأتحرر منه ، وإنى بذلك لخبير ..

ولم يكن صادف فى حياته من هى أكفأ منها على إسعاده . ولا سيدة نفسها . جميلة وذكية وطاهرة ، وقد أحبته بصدق ونقاء . وبات يؤمن بأنه لن يظفر بمثلها مهما ابتسم له الحظ وأنه جزاء عادل على أى حال .

وحمل تيار الزمن حدثا آخر فقد تخلف حمزة السويفى عن العمل ، وعرف فى الإدارة أنه يعانى أزمة ضغط جديدة أشد من الأولى وأخطر . ومضى إليه يعوده . ووجده راقدا فى استسلام كامل

هذه المرة ، وأطياف من العالم الآخر تلوح فى نظرة عينيه الغائمة . تأثر لمنظره ورأى فيه المنظر الأخير الذى يترصد الجميع بمختلف درجاتهم . وقال له :

ــ سلمت أيها الإنسان الكريم ..

ابتسم المدير ممتنا ، ومتسولا أى كلمة طيبة فى ضعفه الداهم :

ــ أشكرك يا أخى ، أنت رجل نبيل بقدر ما أنت كفء وقادر .

ــ ما هى إلا سحابة تمر ثم تعود لتتربع فوق كرسيك العظيم ..

فتقلص وجه الرجل ليمنع دمعة وقال :

ــ الحق أنى لن أعود ..

فقال محتجا :

ــ لا سمح الله ..

ــ ولكنها الحقيقة يا أستاذ عثمان .

ــ أنت دائما تبالغ ..

ــ ولكنه تقرير الطبيب ، قال لى صراحة إننى بالطاعة والدقة أنجو من الأزمة ولكن على أن أعتزل العمل فورا ..

غلب الأسى على عواطفه المتضاربة فقال :

ــ ولكن رحمة الله واسعة ومعجزاته لا نهاية لها ..

ــ لا أهمية للحرص على العمل ، لقد زوجت البنات ، والابن الأخير فى السنة النهائية من كلية الزراعة ، أديت رسالتى كما ترى ،

وما أحتاجه الآن فهو راحة البال .

ـــ متعك الله بكل طيب .

قال بفخار رغم وهنه وتعبه :

ـــ الحمد لله ، قمت بواجبى فى الوزارة كما تعلم ، وأديت رسالتى نحو الأسرة ، وعشت كما سأعيش مستورا كثير الأحباب والأصدقاء ، فيم يطمع المرء أكثر من ذلك ؟

ـــ أنت ذلك وأكثر يا صاحب الفضل والفضيلة .

ـــ نحن نمضى واحدا فى إثر واحد ، هل تذكر المرحوم سعفان بسيونى ؟، كل من عليها فان ، ولكن العمل الطيب يبقى إلى الأبد .

ـــ صدقت فى كل ما قلت ..

ونظر إليه طويلا ثم قال :

ـــ وفقك الله إلى ما فيه صلاحك .

اشتد به التأثر . وبقى التأثر معه طويلا . وامتلأ فى حينه بالعبرة والموعظة حال الراجع من دفن عزيز . ولكنه أفاق فى الوقت المناسب كذلك . وقال لنفسه :

ـــ إن أحزان الدنيا توجد لا لتثبط الهمة ولكن لتشحذها ..

واتجه تفكيره بكل قوة إلى الدرجة التى ستخلو قريبا . وهو لا يختلف اثنان فى الشهادة له بالقدرة والاستقامة والورع . بل هو أكفأ من وكيلى الإدارة ولكن أحدهما فى الثانية والآخر فى الثالثة ،

ولو جرى العدل بغير اعتبار إلا للكفاءة وحدها لكان أحق منهما بدرجة مدير الإدارة ، ولكن كيف يثب من الرابعة إلى الأولى دفعة واحدة ؟!.

وأحيل حمزة السويفى إلى المعاش بناء على طلبه . وأجريت حركة ترقيات شاملة فى الإدارة من الثامنة إلى الأولى ، فرقى إسماعيل فائق إلى درجة المدير ، كما رقى عثمان بيومى إلى الدرجة الثالثة وكيلا للإدارة . وهكذا غير ضغط الدم شتى المصائر سلبا وإيجابا . وسعد عثمان بالترقية يوما ولكن سرعان ما أدركه الفتور ، لقد كان حمزة السويفى موظفا قديرا ولكن لا يوجد بعده من هو أحق بمركزه منه هو ، وإنه لمن المضحك المبكى أن يقدم رجل مثل إسماعيل فائق مديرا للإدارة . ومضى إلى حضرة صاحب السعادة المدير العام ليشكره . ولم يكن يداخله شك فى أنه أقرب الموظفين إلى قلبه وتقديره ، وأنه يعتمد عليه فى أعمال الإدارة ونشاطه الخاص على السواء . صافحه ، وأعرب لسعادته عن شكره بلسان بليغ . وقال صاحب السعادة :

ـــ إنك لم تعرف الظروف كلها ، لقد تراكمت على مكتبى التوصيات من الوزير والوكيل والشيوخ والنواب ..

ونظر إليه مليا ثم استطرد :

ـــ قلت لكم ما تشاءون إلا درجة واحدة لرجل وساطته هى مقدرته وخلقه .

فلهج بالشكر لسانه وكتم فى القلب أحزانه فعاد صاحب السعادة يقول :

ـــ لا خفاء بيننا فى أن إسماعيل فائق ضعيف وجاهل .

فقال بامتعاض :

ـــ لا خلاف على ذلك يا صاحب السعادة ..

ـــ فالثقل سيقع عليك وحدك بالرغم من أنك الوكيل الثانى .

ـــ إنى فى الخدمة دائما ..

فقال بهجت نور متأسفا :

ـــ ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟.. إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل .

ـــ لا لوم عليك يا صاحب السعادة ..

ـــ على أى حال مبارك ومصيرك أن تنال حقك كاملا غير منقوص ..

ورجع راضيا بعض الشىء ولكن امتعاضه مضى يتصاعد فنسى فرحة الترقية . ولعن الجميع بغير استثناء . وقال جزعا :

ـــ العمر أسرع من جميع حركات الترقيات !

وودع موظفى الأرشيف فصافحهم وهو يتلقى تهانيهم ، وعندما جاءت أنسية لمصافحته لاحظ ـــ فى دوامة من الانفعالات المتضاربة ـــ أن بطنها يتخلق بصورة جديدة وسعيدة !. زوجة

وحبلى ولا شك أن حسين سيسعد سعادة خاصة بنقله إلى الإدارة .
وجلس فى الإدارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه أهل الثقة الأولى ، وبأنه الحجة فى الإدارة واللوائح والميزانية فضلا عن دراسته للقانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ فى اللغات . وتساءل :

ــ ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر أو أمام مرض مباغت ؟!

وتوكد لديه أن الوكيل الأول والمدير أصغر منه فى السن ، وأن الدرجات لن تخلو إلا بمعجزة مجهولة ، أو بوفاة عاجلة ، أو بحادث يقع فى الطريق !

ــ أستغفرك اللهم لأفكارى وتمنياتى ..

وكان كلاهما يتمتع بصحة جيدة وطبع بهيج وجهل مطبق وعقل مغلق . وإن أى درجة سوى الدرجة المرموقة لا يمكن أن تبرر التضحيات الجسيمة التى بذلها من عمره وسعادته وراحة باله . ولعله لم يشعر فى أى وقت مضى بما يشعر به الآن من حاجته إلى زوجة قوية رافعة ، قبل أن تنقضى مدة خدمته أو يفاجئه مرض أو يدهمه الموت . لذلك طلب من أم حسنى أن تخاطب أم زينب بشأنه من جديد بعد أن رفعه الله إلى الدرجة الثالثة كوكيل للإدارة . وفى تلك الأيام ضاعف من حذره وهو ذاهب إلى قدرية بالدرب . تراءى له أن يتنكر فى ملابس بلديه حتى لا تعرفه عين ، ومضى إليها بجلباب فضفاض

وعباءة ولاسة فلم تعرفه حتى سمعت صوته . ولما عرفته ضحكت كما لم تضحك من قبل وسألته :

— رفتوك من الحكومة ؟

وكان العمر ينحدر بها رويدا رويدا ، فتمادت فى الضخامة والانطباع بطابع الفحش والشهوانية ولكن العلاقة بينهما توثقت وداخلها ألفة إنسانية . وقد مر معها بجميع الأطوار من الرغبة إلى الملل ثم إلى العادة التى لا يسهل الاستغناء عنها . وباتت هى والحجرة العارية والنبيذ الجهنمى عناصر متكاملة وحميمة وأليفة ، تهبه الراحة والتأمل والأسى ، وتدفعه إلى مواجهة الحياة فى بدائيتها القاسية ، غير مبال بسلوك صاحبته الحيادى وتصرفاتها المهينة ، مما لم يحرمه — وهو معها — من وحدته المقدسة . وكان يقول لنفسه :

— عجيب أننى لم أمارس الحب مع امرأة عادية إلا مرة واحدة رغم هذا التقدم فى العمر !

وتذكر أصيلة ، فتذكر بالتالى أنها كانت جريمة وليست ممارسة للحب . وقال أيضا :

— توجد معاشرة صحية إنسانية .

ثم وهو يتنهد :

— كما يوجد المجد .

ثم وهو يتنهد بعمق أكثر :

ـــ وكما يوجد الله وهو أصل كل شيء ..

ثم وهو يتنهد بعمق أكثر وأكثر :

ـــ ونحن نتذكره بالخير ونتذكره أيضا بالشر !

٣٠

ظهرت أمارات العجز على أم حسنى رغم صمودها للزمن فضعف بصرها حتى الحضيض ، وأصابها عرج ، فلا تمشى إلا متوكئة على عصا هى يد مكنسة قديمة . ويئس هو تماما من أم زينب حتى قال لنفسه حانقا :

ـــ إن الذين يثرثرون حول صراع الطبقات لهم عذرهم !

ولم تعد أم حسنى تصلح لعملها الجليل ، أصابها ما يشبه الخرف ، وعرضت عليه يوما عروسا ناسية أنها انتقلت إلى رحمة الله منذ أعوام . ومرة ـــ عقب صلاة الجمعة ـــ وكان يجلس فى الكلوب المصرى رأى أصيلة وهى تسير بصحبة سيدة أخرى . عرفها من أول نظرة . رغم أنها تغيرت لدرجة أزعجته . تهدلت ككرة مثقوبة ، وجف ينبوع الأنوثة من وجهها ، وحل محله خيال غامض لا هو أنثى ولا هو ذكر . مضت بخطوات فظة مثالا للتعاسة والتدهور . وشىء قال له إن الموت يطاردها ، وأنه يقترب من زمانه ومكانه ، وأن زمانه

الذى تقدس بالخلود يوما مضت تنقشع عنه الأوهام العذبة ، وتتجلى له الحقيقة الأبدية المتعالية بجلال قسوتها . ألا زالت تذكره ، أصيلة ؟ لا يمكن أن تنساه ، لقد نفذ إلى أعماقها بثقله وغدره وأنانيته مخلفا وراءه الكراهية واللعنة . أما أقران صباه فهم يحترفون الحقارة ويتكاثرون بالذرية ، ويملئون الجو بقهقهاتهم . وضاعت تماما عواطف الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسينى ، التى تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من أهل الحى هاجروا إلى المذبح ، كل شىء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاءة اللف تتوارى ، حتى الخير والشر يتجددان ويتنوعان . كل ذلك يحدث وهو ما زال فى الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفانى الجليل ؟. ألم يعلموا بأنه إنسان تلخص فى خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟. وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة فى الإدارة والمخازن والمشتريات لو جمعت فى كتاب لكانت دائرة معارف فى الشئون الحكومية ؟. خبرة نيرة منزوية فى وظيفة وكيل ثان للإدارة كأنها مصباح كهربائى قوة خمسمائة شمعة ثبتت فى جدار مرحاض زاوية بقرية !. وقال لنفسه أيضا إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على

وجهه الصحيح بعد . الوظيفة فى تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد ، والموظف المصرى أقدم موظف فى تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى فى البلدان الأخر محاربا أو سياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو فى مصر الموظف . وإن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا من أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ . وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الآلهة فى السماء ليحكم الوادى من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية . ووادينا وادى فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رءوسهم ترتفع لدى انتظامهم فى سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون إلى فوق ، إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة فى السماء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء .

ومضى ذات يوم للتفتيش فى المحفوظات . وهناك رأى أنسية وقد انتقلت إلى طور النضج الأنثوى والوظيفى أيضا فأصبحت مراجعة فى الوظيفة التى خلت بانتقال زوجها إلى وزارة المعارف . ولم يتمالك أن قال لها وهو يصافحها :

— أيام ..

فابتسمت فى حياء صادق فقال :

— سعيدة إن شاء الله ؟

ــ الحمد لله .

فقال بعد تردد وبإغراء لم يستطع مقاومته :

ــ من حسن الحظ أننا ننسى .

فقالت ببساطة ومودة :

ــ لا شيء ينسى ولا شيء يبقى !

وتفكر فى قولها طويلا . وغادر المحفوظات وهو يقول لنفسه :

ــ يا أنسية أحببتك كثيرا فى الأيام الخالية .

وعاد إلى مكتبه فوجد نشرة مرسلة من إدارة العلاقات العامة عرف من شكلها أنها تحمل نعى موظف أو قريب له . قرأ :

« انتقل صباح اليوم إلى رحمة الله المغفور له إسماعيل بك فائق مدير الإدارة ، وستشيع الجنازة ... » إلخ .

أعاد القراءة . قرأ الاسم مرات . مستحيل . كان حتى الأمس يباشر عمله وهو فى غاية من الصحة والنشاط . وقد شرب قهوة الصباح معه فى مكتبه ، وكان الرجل يقول مرددا اهتماماته المعروفة :

ــ البلد يموج بالأفكار المتضاربة ..

فابتسم عثمان ولم ينبس فقال إسماعيل :

ــ كل واحد يعتقد أنه رسول العناية الإلـٰهية .

وهز رأسه ثم تساءل :

ــ بأى عقل نشرع فى إعداد الحساب الختامى ؟

فأجاب عثمان بهدوء ساخر :

ـــ بعقلى أنا !

فضحك الرجل ضحكة عالية . وكان يسلم بكفاءة مرءوسه وأنه العمود الفقرى للإدارة . لم تكن بينهما مودة ولا عداء . رباه كيف مات الرجل !. وذهب إلى الوكيل الأول المعروف بصلته الحميمة بالراحل وسأله :

ـــ هل عندك علم عن هذه المصيبة ؟

فأجاب الوكيل الأول بذهول :

ـــ شرع فى تناول الإفطار ، ثم شعر بتعب مفاجئ فقام ليستلقى على ديوان ، ولما لحقت به حرمه لترى ما به وجدته جثة هامدة !

إن ما يوفر لنا بعض الطمأنينة هو اعتقادنا بأن الموت منطقى ، يمارس وظيفته من خلال مقدمات ونتائج . ولكنه كثيرا ما يدهمنا بلا نذير كزلزال . تمتع إسماعيل حتى آخر لحظة بكامل حيويته . وما حدث له قد يحدث لأى إنسان ، أليس كذلك ؟. وهكذا فلا ضمان ألبتة لصحة أو لخبرة أو لعلم . وهزه الخوف من أعماقه .

ـــ خير تعريف للحياة أنها لا شىء ...

ولكن هل وقع جديد لم يكن له به علم ؟. كلا . غير أنه ليس من سمع كمن رأى . وسيستمر خوفه يوما أو يوما وبعض يوم . وفى تلك الساعات تتساوى المكاسب والخسائر ، والمسرات والأحزان ،

وتتوارى معانى الأشياء .

ــ ما قيمة ما بذلت طيلة العمر من جهد وتفان ؟!

ولازمته وساوسه فى الجنازة ، والمأتم ، وحتى أحاديث الموظفين المتنوعة فى المأتم لم تبلغ وساوسه ، ولكنه شعر بامتنان لأنه ما زال حيا .

ــ ما البطولة الحقة ؟.. هى أننا نعمل بلا هوادة رغم علمنا بكل ذلك .

وسرعان ما طرد التفكير فى درجة مدير الإدارة ما عداه . إن الوكيل الأول مرشح لوظيفة فى القضاء ، والطريق واضح بعد ذلك ، وهو أن يرقى إلى الثانية وينتدب مديرا للإدارة فيستحق الترقية إليها بعد مضى عام على شغلها .

تجسد له الأمل حقيقة ملموسة .

ولكنه بوغت بقرار تعيين مدير إدارة جديد نقلا من وزارة المواصلات ..!

٣١

لا .. لا .. لا ..

ذاك ما لم يخطر له ببال . وحقد على حضرة صاحب السعادة بهجت نور ولعنه ألف لعنة . هو من كان ينبغى أن يدافع عنه . عليهم اللعنة .. هل يتصورون أن يعمل لحساب غيره طول عمره ؟ ومن هو المدير الجديد ، من يكون عبد الله وجدى هذا ؟. كيف يقدم له نفسه كمرءوس ؟. إنه لشىء مخجل . الخجل يطارده فى أروقة الوزارة ، وما أكثر الشامتين .

ودعاه بهجت نور إلى مقابلته وقال له :

ــ إنى آسف يا أستاذ عثمان ..

فقال له صراحة :

ــ إنه اليأس من الحياة الفاضلة ..

ــ لا .. لا ، إنه قريب الوزير !

ــ إنى أحسد الموظفين الكسالى .

ــ أكرر الأسف ، وأخبرك بأن سعادة وكيل الوزارة آسف أيضا ...

وتمهل دقيقة ثم قال :

— لا تيأس ، فالرأى متفق على ترقيتك وكيلا أول عقب نقل شاغلها مباشرة فى هذا الشهر ..

لا فائدة . الدرجات لا تهمه إلا باعتبارها وسيلة لأمله المنشود الذى كرس له العمر . والمدير الجديد فى الأربعين من عمره . شاب أو أكثر من ذلك بقليل . وإذا سارت الأمور سيرها الطبيعى فسوف يحال على المعاش وهو وكيل للإدارة أو وهو مديرها على الأكثر إذا وقعت معجزة . تبدد حلم الحياة وبات مستحيلا . ومات الماضى بعد أن تمخض عن وهم أسود . ولعله كان خيرا له لو أقام حياته كأبيه فوق الكارو . ولأول مرة فى حياته يدهمه اليأس ، فقد بدت نهاية العمر أقرب كثيرا من جوهرة الأمل . وفكرة جديدة تسلطت عليه بقوة قاهرة لم يعهدها من قبل هى الزواج . لا يجوز تأجيلها بعد اليوم ولا فائدة ترجى من تأجيلها . وبحسبه أن ضاعت أطيب فترات العمر الصالحة للحب والزواج . ما أشد حاجته إلى شريكة ، إلى عاطفة صادقة . إلى مشاركة أمينة ، إلى دفء البيت ، إلى الذرية ، إلى علاقة إنسانية ، إلى قلب ويد ولسان ، إلى ملجأ من العذاب ، إلى درع ضد الموت ، إلى منقذ من الضياع ، إلى محراب مناسب للإيمان ، إلى محطة راحة من الأحلام الخرقاء ، إلى هدنة مع الحرص والحرمان والوحشة .

ــ المرأة هى الحياة ، الموت نفسه يكلل بجلاله الحق بين يديها ..

ولم يلجأ إلى أم زينب ، ولا فائدة ترجى اليوم من أم حسنى بعد أن أقعدها العجز ، ولكن ثمة فتاة جديدة فى الإدارة تدعى إحسان إبراهيم ، لم يتردد فى إظهار تودده إليها . ذلك أنه يريد أن يتزوج اليوم إن أمكن . وكلما بات ليلة وحيدا اشتد جزعه . كأن الرغبة فى الزواج كانت تنمو فى داخله وهو لا يدرى حتى انفجرت كبركان . ولم تفهم إحسان تودده على الوجه الصحيح ، ولعلها استبعدت أن يغازلها رجل فى سنه ؟. وما حيلته ولم يعد يوجد حب كأيام سيدة وأنسية ، ولا رغبة جامحة كأيام سنية وأصيلة .

وانتهز فرصة وجودها ــ إحسان ــ يوما فى حجرته فسألها :

ــ تسمحين لى بسؤال غريب بعض الشىء يا آنسة إحسان ؟

ــ طبعا يا سعادة البك .

فتردد قليلا ثم سأل :

ــ أأنت مخطوبة ؟

تورد وجهها ورمقته لأول مرة بنظرة أنثى لا موظفة وأجابت :

ــ نعم يا سيدى .

شعر بخيبة أمل ولكنه قال :

ــ معذرة فإنى لم أر خاتما فى أصبعك .

ــ أعنى فى حكم المخطوبة .

تفكر مليا ثم قال :

ــ لدى رجاء ولكن يجب أن يبقى سرا بيننا ؟

ــ أفندم ؟

ــ هل أطمع فى أن تدلينى على عروس ؟

فتفكرت فى ارتباك ثم قالت فى حذر :

ــ جميع من أعرف من قريبات وصديقات يقاربنني فى السن فهن لا يلقن بك !

ــ يا لها من ترجمة مهذبة لـ « لا تليق بهن » ، وتمادى من شدة يأسه فسألها :

ــ ألا يمكن أن يتزوج إنسان فى مثل سنى ؟

ــ لِم لا ؟، توجد عروس مناسبة لكل سن !

ــ شكرا ومعذرة عن مضايقتك .

ــ أرجو أن أوفق لخدمتك ..

وعند ذهابها استشاط غضبا . تصور أنها كان يجب أن ترحب به لنفسها أو لإحدى القريبات أو الصديقات . إذن قد صار كهنة مثل فضلات المخازن التى يعرضها للبيع عند الجرد السنوى . والظاهر أنه لن يكون أسعد حظا فى مسألة الزواج ، ولو نال أمله المنشود وحلم العمر فى حجرة صاحب السعادة . ها هو الزمن يلهبه بسياطه على حين أنه لم يعد يقوى على العدو . وبمرور كل يوم اشتد تسلط فكرة



هل أطمع فى أن تدلينى على عروس ؟

الزواج عليه حتى كادت تزاحم هوس الدرجة . ولم ترجع إليه إحسان بجواب . ومن جنونه راح يحاول مغازلة النسوان فى الطرقات والباصات بلا خبرة وبلا نجاح حتى اضطر إلى الكف عن ذلك وهو يقول متأوها :

ـــ ما أضيع العمر ..

وتساءل بامتعاض عما يجعل زواجه متعسرا بهذه الصورة حتى بعد أن نزل عن شروطه المعوقة الأولى . السن بلا شك مثبطة ولكنها ليست كل شىء . إنهم يتحرون عنه وسرعان ما يعرفون كل شىء عن أصله وفصله ، هذه هى الحقيقة الأخرى المخزية . إنه فى الحقيقة كهل ذو منبت حقير ، والله أعلم بما يقال عنه بالإضافة إلى ذلك ، فإن رجلا متفوقا مثله خليق بإثارة عواطف الحسد فى النفوس ، وطالما شعر بأنه بلا صديق حقيقى فى هذه الدنيا ، وبأنه وحيد متعال عن الضعف البشرى !

وحمله الليل ـــ كالعادة الرتيبة ـــ إلى الحجرة العارية ، إلى قدرية . وقال لنفسه بمرارة ما أجمل أن يكون نصيبى من الدنيا درجة وكيل إدارة وبغيا نصف زنجية !. وكانت تقول له ضاحكة :

ـــ لأول مرة تشرب قدحين من النبيذ ، هل قامت القيامة ؟

أما القيامة فقد قامت وها هو يشعر بدوار غريب فى رأسه . قال لها بلا مناسبة :

ــ اعلمى يا قدرية أنى رجل مؤمن .

فلفت شعرها الخشن بمنديل أحمر وقالت :

ــ الحمد لله ..

ــ ولولا إيمانى بأن الدنيا مقدسة بما هى من صنع الله لرضيت بحياة البهائم ..

فنظرت إليه نظرة بلهاء وقالت :

ــ قرروا إلغاءنا عليهم اللعنة ..

فواصل بلا انتباه إلى قولها :

ــ والله سبحانه ..

فقاطعته :

ــ قرروا إلغاءنا ..

ــ أفندم ؟

ــ ألم يبلغك ما يقال عن إلغاء البغاء ؟

كلا . إنه لا يقرأ فى الصحف إلا الوفيات وشئون الدولة والدواوين . فتساءل بانزعاج :

ــ حقا ؟

ــ نبهوا علينا بالفعل .

ــ خبر غريب ..

ــ وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أى عمل ؟، عليهم لعنات الدنيا

والآخرة ، هل أصلحوا كل شىء فلم يبق إلا نحن ؟!

— لعله كلام ، ما أكثر الكلام فى هذا البلد ..

— يا سيدنا لقد أبلغنا رسميا بالأمر ..

فسأل بجزع ورعب :

— ومتى تم ذلك ؟

— قبل نهاية هذا العام ..

وساد صمت حتى ضجت الحجرة بأصوات المعربدين فى الحارة . كم من مصائب توقعها أما هذه المصيبة فلم تجر له على خاطر . وقال بأسى :

— ستنتشر بيوت الدعارة فى كل مكان ..

— والأمراض كذلك .

— وآلاف من بنات الناس سيتعرضن للفساد .

— ماذا نقول لمن لا عمل لهم ؟

وتنهد ثم سألها :

— وعلام نويت ؟

— على أى حال لن أقبل أن أعمل غسالة فى مستشفى .

— هل يمكن أن أعرف عنوان بيتك ؟

— سنكون تحت رقابة مشددة .

وشعر بيأس لا يطاق وسألها :

— ألم تكونى فكرة عن المستقبل ؟

فقالت بثقة :

— سأتزوج . لم يبق لى إلا الزواج ..

ولطمه قولها فملأ القدح الثالث ، وسألها :

— عندك عريس ؟

— ما أسهل أن يوجد !

— ولكن كيف ؟

فقالت فى مباهاة :

— عندى خمسمائة جنيه ، ممكن أجهز شقة بمائة وخمسين ، وأحتفظ بالباقى كاحتياطى ، ألا يرحب كثيرون بالزواج منى فى تلك الحال ؟

— معقول جدا ..

فقالت وهى تضحك :

— إن وجدت عريسا مناسبا فأخبرنى ..

وعند منتصف الليل وهو يتسلل تحت البواكى صادف سكران يتقايأ فتقزز لدرجة غير محتملة . وشعر بوحدته وضياعه ويأسه وبرغبة فى الانتحار . وغير طريقه بلا تفكير . رجع إلى الدرب مترنحا فصادف قدرية تهبط السلم فى طريقها إلى مأواها . أوقفها بيده وقال لها :

— قدرية . وجدت لك الزوج المناسب ..

لم ير وجهها فى الظلام ، ولكن خمن تأثير قوله فقال :

— لنتزوج فى الحال !

٣٢

وتم الزواج فى اليوم التالى مباشرة . ولم تذهل المرأة لقراره كما توقع . رمقته بنظرة متفحصة لتتوكد من صدقه ، فلما تبين لها صدقه أحنت رأسها بالقبول . وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابع فى الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه !. وقال لها بعجلة :

— لنذهب إلى المأذون توا .

فقالت وهى تضحك فى سعادة :

— أفق أولا وانتظر طلوع النهار .

وبات الليل فى شقتها الصغيرة بعطفة الشماشرجى . وفى الصباح قال لها :

— نعد بيتنا الجديد ثم نتزوج .

ولكنها قالت بإصرار نهائى :

— بل نتزوج ثم نعد بيتنا .

وجىء بالمأذون إلى البيت . واقتضت الإجراءات شاهدين

فلم تجد إلا قوادين ممن كانوا يعملون معها . وجرت المراسم البسيطة وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذى يجرى ؟. واجتاحه شعور ممزق بالقلق بلغ حد الرعب فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد سحابات الكابوس الذى يعانى . ثم اجتاحته موجة من الاستسلام بلغت حد الاستهتار . ولما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . قال لنفسه إنهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الإنصاف أن يعترف ـــ بدءا من اليوم ـــ بأنه مجنون ـــ كهلة نصف سوداء فى ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش . هكذا تحققت الأمنية التى تاق إلى تحقيقها بجنون ، فأصبح زوجا ، كما أصبحت قدرية ـــ رفيقة شبابه ـــ زوجة له . ترى ماذا فعل بنفسه ؟!. وقال :

ـــ على أن أبدأ حياة جديدة ..

ولإعجابه بروض الفرج ـــ الذى رآه وهو يعود حمزة السويفى ـــ استأجر به شقة من ثلاث حجرات وصالة ، ومضيا يؤثثانها معا بعد أن ألزمها بالحجاب ، باسم الحشمة فى الظاهر ، وفى الحقيقة خوفا من أن تقع عليها عين زبون قديم أو حديث . ابتاعا حجرة للنوم وثانية للسفرة وثالثة للمكتبة والجلوس والاستقبال ، وثيابا لها وله ، وراديو وغير ذلك . وقد أسهمت فى التجهيز بمائة جنيه ورصد هو لها بمثلها . وبدافع من الاستهتار الذى ركبه مال إلى تغيير سياسته نحو

« النقود » فأنفق — كلما دعا الداعى — باستسلام يائس غطى على الألم المعتاد فى مثل تلك الأحوال ، وتملكته رغبة قوية فى الاستمتاع بطيبات الحياة التى طالما حرم نفسه منها . وودع أم حسنى وداعا مؤثرا فذهلت العجوز لقراره وبكت قائلة :

— لا تهجر منبتك فليس فى ذلك خير .

ولكنه هجره بلا أسف ، ولم يكن مما يصح التفكير فيه أن يجيء بقدرية إلى حارة الحسينى ، ونظر إليه بصفة عامة كرمز للبلى والحرمان والضياع والذكريات المحزنة . أغرق آلامه الظاهرة والخفية فى المتع المتاحة ، وأصر على تذكير نفسه — وإقناعها — بأن قدرية هى المرأة الوحيدة التى أحبها حبا حقيقيا ، وإلا فكيف عاشرها ذلك العمر الطويل كله ؟!. وها هى لا تألو جهدا فى لعب دور ست البيت فى الوسط الجديد « الراقى » الذى يعد الانتقال إليه من « الدرب » وثبة خيالية . ودعا الله ألا تراها العيون التى عرفتها . ونصحها قائلا :

— تجنبى الاختلاط بالجيران .

فسألته :

— لِم ؟

— الناس أخلاقها لا تسر !

وكان يخشى أن يقع خلاف بينها وبين إحدى الجارات فتنسى تحفظها وتنفجر براكين الفحش الكامنة فى أعماقها . عدا ذلك فإنه

لا يجحد اجتهادها الصادق فى إسعاده وحرصها على النجاح فى حياتها الجديدة . وبمضى الأيام اطمأن إلى الحياة الجديدة ، سلم بواقعها ، ونعم بما وفرته له من أنس وراحة ونظام ونظافة ، وها هو يصلى بلا قلق ولا حرج ، بل ها هو يتقرب إلى ربه بما أنقذ من روح ضائعة ، ولعلها روحان لا روح واحدة .

واعتقد أن حياته الدنيا قد كملت بالمقسوم له وأنه آن له أن يفكر فى آخرته . قال :

ـــ واجب علىّ أن أشيد لى مدفنا !

واستشار أهل الخبرة ، وبفضلهم اشترى أرضا فى الخفير ، وشرع فى بناء قبر مناسب . وكثيرا ما تفقد العمل بصحبة مهندس من الإدارة الهندسية بالوزارة . وسأله المهندس :

ـــ أليس للأسرة مقبرة قديمة ؟

فأجاب بثبات :

ـــ قديمة جدا ، واكتظت بالآباء والأجداد ، فدعت الضرورة إلى بناء هذه المقبرة ..

فقال المهندس :

ـــ شتان بين الجديد والقديم فى القبور ، القبر الجديد بناء عصرى جميل ..

ـــ أنا لا أهتم بتملك بيت فى الدنيا فشقة مستأجرة تفى بالغرض

ولكن لا مناص من تملك قبر وإلا ضاعت كرامة الإنسان ..

فضحك المهندس وقال :

ـــ فى الهند يحرقون الجثث ..

فقال متأففا :

ـــ أعوذ بالله ..

فضحك المهندس كرة أخرى وقال :

ـــ أتريد رأيى ؟ النار أحفظ لكرامة الجثة من التراب ، أليس لديك فكرة عن أطوار تحلل الجثة فى القبر ؟

فقال بضيق :

ـــ كلا ، ولا داعى ألبتة لهذه المعرفة !

وتفكر قليلا ثم سأل المهندس :

ـــ ألا يحسن بناء دورة مياه ؟

ـــ ستستعمل فى غيابك ، وبطريقة مقززة !

ـــ ولكن لا بأس من زراعة شجرة أو لبلابة ..

ـــ ليكن ، ويمكن ريها من الخارج ..

وتم البناء فذهب لتسلمه ودفع باقى الأتعاب . تفحص القبر بإعجاب . كان بابه مفتوحا ، والسلم يرى فى تدرجه نحو المنامة متألقا بنور الشمس . وانحنى قليلا ليلقى نظرة على أرضه المنبسطة الجديدة المكللة بالضوء والنقاء والنظافة وشعر باطمئنان غريب غير

متوقع . فها هو البيت الباقى قد أعد ، ولن تضيع عظامه فى زحمة العظام كوالديه . وبخلاف المتوقع أيضا انبجس من أعماقه شعور ناعم غريب يدعوه بهمس كالغزال إلى الرقاد فوق الأرض النظيفة المضيئة ، ليتذوق راحة لم تقسم له فى حياته ، وليستمتع بهدوء لم يعرفه وسط انفعالاته المتلاطمة الحارقة ، نداء مجهول ود لحظتها لو يطيعه منفضا يديه من الدنيا بكل همومها وآمالها . ولم يفق من غمرة مشاعره المجهولة حتى غادر القرافة راجعا إلى المدينة . كم يود أن ينقل والديه إلى القبر الجديد ليكمل اطمئنانه إليه ولكنه علم باستحالة ذلك منذ زمن غير قصير . أجل فإن قبر الصدقة يكتظ بالجثث بحيث يستحيل التمييز بينها . وقال متسولا الاقتناع بحكمة تصرفه :

— ليس من شك فى أن حياتى اليوم خير من حياتى أمس ..

وهى لا تعنى بحال أنه حاد عن طريق الله وكلمته الأبدية ، وإن اعتراه فتور ملحوظ ..

لتمض الأيام .

مهما يكن من أمر فقد أصبح صاحب أسرة ومالك قبر ، وعرف من الطعام ألوانا جديدة غير المعهود من لحمة الرأس والكشرى والفول والطعمية والعدس والبصارة ، كما عرف للنقود وظيفة غير التحنيط فى صندوق البريد .

ولكن ألا تمضى الأيام فى رتابة ووخامة ؟. وهل فقد الأمل بصفة نهائية ؟!.

وانبثقت من تيار الأيام موجة عالية وعاتية غير متوقعة بتاتا ، غيرت المصائر والحظوظ ، وأعادت خلق العالم من جديد . فقد أصبحت الوزارة ذات يوم على قرار بتعيين بهجت نور المدير العام وكيلا للوزارة فخلت وظيفة المدير العام لأول مرة منذ عهد مديد ، وعاشت قلوب كثيرة فى خفقان متواصل مقدار أسبوعين حتى صدر قرار بترقية عبد الله وجدى مدير الإدارة إلى وظيفة المدير العام فبات « صاحب سعادة » بالطول والعرض . وانبعث الخفقان فى قلب كان قد استنام إلى الهمود زمنا غير قصير . فقال عثمان :

ــ إنى المرشح الوحيد « رسميا » و« طبيعيا » فماذا تراهم يفعلون ؟!

ومضت أسابيع فلم يقصر فى حق نفسه . حادث المدير العام كما حادث وكيل الوزارة .

وسمع بعضهم يقول :

ــ إن وظيفة مدير الإدارة من الوظائف الحساسة .

فسأله عما يعنى فأجاب :

ــ لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عند الاختيار لها ولكن يضاف إليهما المكانة الاجتماعية ..

فصاح بغضب :

ــ ذلك كلام يصدق على الوكيل أو الوزير أما مدير الإدارة بل والمدير العام فلا يحرم منها أبناء الشعب ، بذلك جرى العرف منذ تنحى عنها الموظفون البريطانيون ..

ولم يطل به العذاب فقد صدر قرار ترقيته إلى درجة مدير الإدارة فى نفس الشهر . وفيما بعد تذكر ذلك اليوم بوجد وكان يقول :

ــ وقعت المعجزة فى غمضة عين !

وقال أيضا :

ــ لم يعد يفصل بينى وبين المدير العام فاصل من الكادر !

ولكن كيف وقعت المعجزة ؟. جرى فى تقديره يوما أنه سيحال

على المعاش قبل أن يتحرك أحد فى الطابور أمامه ، ولكن حدث تعديل وزارى اختير فيه وكيل الوزارة وزيرا ، ثم أعقب ذلك التغيرات السعيدة المفاجئة . وقال له بهجت نور وكيل الوزارة :

— رقيتك رغم الاعتراضات الكثيرة ..

فشكر له فضله ولكنه تساءل بأسف :

— ولماذا الاعتراضات ؟

فقال الوكيل :

— إنك فوق قمة عمرك الحكومى فلا يمكن أن تجهل سببا مما تسأل عنه ..

على أى حال انفتحت نفسه للعمل كحاله الأول ، وتعهد أمام ربه بأن يسجل فى رياسته الإدارة تاريخا فذا حافلا بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة ، وأن يثبت للجميع أن الوظيفة عمل مقدس وخدمة إنسانية وعبادة بكل معنى الكلمة . ومن أول يوم قرر أن يتعاون مع عبد الله وجدى بصدق ، لأن التعاون مع المدير العام طقس من طقوس العبادة فى العمل ، ولأنه لم يخن واجب الوظيفة أبدا ، بل قرر أن يغطى ضعفه بخبرته ، يقدم له من الخدمات الخاصة ما هو فى حاجة إليها أسوة بوكيل الوزارة نفسه ، ولعله يجنى يوما ثمرة ما يزرع . وجعل يقول لنفسه :

— عبد الله وجدى فى حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات

قد عاد !

ولكنه فى الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بدانة عبد الله وجدى باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه فى الطعام والشراب بارتياح خفى ، ويردد فيما بينه وبين نفسه :

ـــ ما أكثر الأمراض التى يتعرض لها أمثاله !

وهو حق وعدل . لِم لا ؟. إنه برغم الهفوات رجل مؤمن ، من رجال الله ، ومن مريدى الحسين والله لن يتخلى عنه . قال :

ـــ هل يستطيع الإنسان فى يوم الحساب أن يقدم خيرا من طموحه النبيل وعمله المقدس وتقدمه الثابت وسجلا بالخدمات التى أداها للدولة والناس ؟!

وقال أيضا :

ـــ إن الدولة هى معبد الله على الأرض ، وبقدر اجتهادنا فيها تتقرر مكانتنا فى الدنيا والآخرة ..

أما حياته الزوجية فلم تنعم بالهدوء والازدهار طويلا . ومتاعبها كانت متوقعة رغم مغالطة النفس والتعلق بالآمال . وقال لها :

ـــ قدرية ، إنك تفرطين فى شرب الخمر .

فرمقته بدهشة وقالت :

ـــ هذا واضح ، وهو قديم ..

فقال برجاء :

ــ يوجد أمل دائما فى أن نتغلب على عاداتنا السيئة ..

ــ لا ضرورة لهذا التعب ..

فقال برجاء أيضا :

ــ بل إنى آمل أن تصومى وأن تصلى فنحن فى حاجة إلى رضى الله عنا .

فقالت بامتعاض :

ــ إنى مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم ..

ــ إنك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة ..

ــ إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟!

ــ يجب ألا تسكر على الإطلاق .

فضحكت بصوت مزعج ولكنها سرعان ما قطبت وقالت بأسى :

ــ لا أمل !

ــ ماذا تعنين ؟

ــ لا أمل فى بنت أو ولد ، فات أوان ذلك .

وشعر بأنه يشاركها فى الحزن على ذلك ولكنه قال :

ــ أمامنا على أى حال فرص طيبة للحياة الهانئة .

وبذلت محاولة غير جادة للامتناع عن الشرب ولكنها استمرت فيما هى فيه . وربما ضاعفت من إدمانها بعد رجوع عثمان إلى

الاستغراق فى عمله ومعاناتها لفراغ مخيف بلا أنيس . ولمحها مرة وهى تتناول قطعة من الأفيون ففزع الرجل وصاح :

ـــ لا ..

فصاحت بحدة :

ـــ لا تتعرض لهذا !

فسألها بلهفة :

ـــ منذ متى ؟

ـــ من أيام سيدنا نوح .

ـــ ولكن ..

ـــ إلا هذا ، إنه أقوى من الموت ..

ـــ ولكنه والموت شىء واحد .

فقالت باستهتار :

ـــ ليكن ..

تملكه الفزع . ماذا فعل بنفسه ؟. أى طلاء سعادة خدعه ؟. بأى ثمن عليه أن يقاوم . لا جدوى من التفكير فى الطلاق لأنه يعنى الدخول فى معركة حامية ربما انتهت بالقضاء عليه . وسألها :

ـــ كيف تحصلين عليه ؟

فلم تجب . فقال :

ـــ تذهبين إلى الحثالة القديمة المشبوهة وفى ذلك ما فيه من الخطر

البين ..

— لا تبالغ ..

— قدرية ، فكرى ، إن لم تغيرى حياتك حل الخراب بنا ..

وشحذ إرادته للدفاع عن سمعته ومستقبله . ومن خلال ما يشبه المعركة حملها إلى مصحة نفسية وعصبية بحلوان فمكثت بها أشهرا حتى شفيت من الإدمان . خيل إليه أنها عادت امرأة جديدة . ولم تجد من سلوى فى حياتها إلا الطعام فأقبلت عليه بشراهة وإفراط ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك فى الدهن الذى اكتنز به جسدها فزاد بدانة على بدانة حتى تبدت فى صورة تدعو إلى الرثاء والسخرية معا . ولم يفارقه القلق من ناحيتها فكان يعمل بعين ويراقبها بعين ، ويقول بحزن :

— فقدت الميزة الوحيدة التى كنت أستمتع بها فى الليالى البهيمية ، وها هى تتعرى كاشفة عن بدائية تعيسة بلا خلق ولا دين ولا عقل ولا ذوق ..

وتذكر الآراء التى يعلل بها بعض الزملاء — المولعين بالسياسة والأفكار — هذه الظاهرة وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات ، ولكنه تذكر أيضا « حالته » ، ألم ينشأ مثل قدرية فقيرا وعاجزا ومحروما من كل سلاح ؟. بلى ، ولكنه اكتشف فى الوقت المناسب السر المقدس فى ذاته الضعيفة ، كما اكتشف حكمة الله

الخالدة ، فشق طريقه بجلال وعذاب جديرين بالإنسان مخلوق الله العظيم ، ولذلك لم يكد يعطف عليها ، ورجع يتساءل :

ـــ ماذا فعلت بنفسى ؟

أجل، ما معنى حياة زوجية بدائية بلا حب حقيقى أو علاقة روحية أو أمل فى ذرية أو مجرد زمالة إنسانية؟!! على أنه قال لنفسه محذرا:

ـــ هون من أحزانك ، لم تعد تتحمل كالزمان الأول ، أجل يوجد تغير جديد ، خفيف كالنسيم ولكنه ماكر كالثعلب ، إنه السن ، وإنه الزمن ..

وتفكر قليلا ثم قال :

ـــ بفضله نحقق كل شيء ، وبسببه نخسر كل شيء ، ولا يبقى إلا وجه ذى الجلال !

٣٤

كالعادة نسى النجاح تماما . انجابت الأفراح وتراكمت سحب الهموم . أصبحت رياسة الإدارة عادة روتينية ، عليه أن يتجاوزها ، وأن يتجاوزها بسرعة تناسب القليل الباقى من العمر ، وإلا انقضت مدة الخدمة وهو واقف كالمتسول أمام باب الحجرة الزرقاء . والطموح عنيف والزواج لم يعد بالمرفأ المواسى .

ــ يا ربى إنى أحاول هدايتها فهبنى من لدنك قوة .

لكن جهده يتبدد هباء ، ودهمها بتعاسة لم تجر لها فى خاطر . فى الماضى كانت تعيش التعاسة ولا تكاد تشعر بها ، وتجد فى الخمر والأفيون ملاذا طيبا ، أما اليوم فهى تتصدى للخواء فى يقظة بغيضة بعينين محملقتين مذعورتين بلا عزاء ولا حب ولا ذرية . قال :

ــ كانت فى الدرب عزاء لى ولذة أما فى هذا البيت المريح فهى الجحيم .

وقال أيضا :

ــ لو ذهب كل منا إلى حاله لربما حدثت معجزة سعادة ، أين وحدتى القديمة أين ؟!

ورجع يوما فرأى فى عينيها نظرة حمراء ذاهلة وضاحكة فقال برعب :

ــ عدت إلى الشراب ؟

فأحنت رأسها باستسلام وقالت :

ــ نعم والحمد لله !

فتنهد وقال :

ــ وعما قريب سترجعين إلى الأفيون .

فقالت بنبرة ساخرة :

ــ حصل والشكر لله ..

فتساءل بحدة :

ـــ والعمل :

فقالت بهدوء :

ـــ كل شيء طيب ، ليلة أمس حلمت بأمى !

ـــ سأيأس منك نهائيا .

ـــ خير ما تفعل .

ووجدها تذوب فى عالمها الوهمى وتعتزله كلية فارتاح بعض الشيء . ها هى تستقل بدنياها وها هو يعود إلى وحدته . وقرر بضمير قلق ـــ ألا يقاوم تدهورها هذه المرة . وقال يخاطب ربه :

ـــ اغفر لى أفكارى يا رب ، إنها قاسية مثل الحياة ، وهى جزء منها ليس إلا ..

وهو يتلظى بذلك السعير تعينت راضية عبد الخالق سكرتيرة له . وكان مدير المستخدمين قد طلب منه اختيار الشخص الذى يجده مناسبا لسكرتيريته . قال له :

ـــ من حقك أن تختار سكرتيرتك ، بل من حقك أن تعين فيه قريبة من ذوى الثقة ..

أحقا لا يعرف الرجل شيئا عن أصله وفصله ؟ عرف طيلة خدمته الطويلة عبقرية الموظفين فى نبش المستور ونشر الفضائح ، ولا شك أن المنبت « الكارو » لم يعد يخفى على أحد . وقال الرجل :

ـــ أترك لك الاختيار .

فقال مدير المستخدمين مداهنا :

ـــ إنك مثال النزاهة والترفع يا سيدى المدير .

وفى صباح اليوم التالى دخلت عليه راضية عبد الخالق فحيته وقالت :

ـــ راضية عبد الخالق ، سكرتيرة سعادتك إذا سمحت ووافقت ..

فقال وهو يتذوق انفعالا طيبا :

ـــ أهلا بك ، من أى قسم ؟

ـــ المستخدمين .

ـــ عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

ـــ ليسانس آداب قسم التاريخ ..

ـــ عظيم ..

هم بسؤالها عن سنها ولكنه أمسك ، وقدره بخمسة وعشرين عاما . رشيقة القوام بصورة ملحوظة ، ذات هالة من الشعر الفاحم سواها الحلاق فى بساطة وانسياب فأحدقت بجانبى الوجه الأسمر الطويل صانعة له إطارا حانيا ، وعيناها صغيرتان وواضحتان وذكيتان يومضان بجاذبية ، وبروز ثنيتها ـــ وربما عد عيبا ـــ أضفى على فيها شخصية حلوة . انفعل بجاذبيتها وقال فى سره :

ــ لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق ..

وقال لنفسه أيضا :

ــ إنى فى حاجة إلى مظلة فى هذا الجحيم ..

ومن أول نظرة نزع قلبه إليها بارتياح وسرور ورغبة خفية فى الاحتماء . وبمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمة عانس . وفضحته أمانيه العميقة أمام نفسه ، فضحت أحلامه ورغباته ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير ــ مجرد التفكير ــ فى ارتكاب أية حماقة . قال لنفسه :

ــ حسبى أن أصبح على وجهها كل يوم .

واستأسره أدبها ورقتها وعذوبة نظرتها الناعمة . وحلل ذلك بأنه السلوك الواجب من سكرتيرة نحو مدير ، وهو واجب أكثر إذا كان المدير فى سن والدها . ولكن ما بالها تشغله أكثر مما يجب ، ما بالها تعبق حياته بشذا طيب ونفاذ . وقال لنفسه :

ــ فى لحظة من لحظات الحياة يستوى من أخذها مأخذ الجد ومن لها بها لهو العبث والهزل .

وتوجه إلى ربه داعيا :

ــ اللهم عفوك ورحمتك .

وجعل يلاحظ عملها باهتمام حتى سألها يوما :

ــ أيشق عليك العمل فى مكتبى ؟

فأجابت بحرارة :

ـــ كلا ، إنى أحب العمل !

ـــ كذلك كنت منذ نشأتى الأولى ، وما زلت ، وأبشرك بأنه جهد غير ضائع ..

ـــ ولكن يقال ..

فقاطعها :

ـــ أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة .. القرابة .. الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوى الكفاءة يجدون أنفسهم فى حاجة إلى من يغطى عجزهم من الأكفاء الحقيقيين ..

وابتسم فى افتتان خفى بجاذبيتها واستطرد :

ـــ لقد شققت طريقى معتمدا على الله سبحانه وعلى عملى ..

ـــ يتردد ذلك فى كل مكان .

ترى ماذا يتردد أيضا ؟!. ذلك الذى جعل أم زينب لا ترجع بجواب !. ولكن لم تعد لذلك أهمية اليوم . وقال لها :

ـــ من الإنصاف أن أصارحك بأننى راض عن عملك تماما !

فابتسمت قائلة بسرور :

ـــ إنى مدينة لنبلك بهذا التشجيع !

لا يوجد جو أصفى من ذلك . جو نقى ملىءبالوعود . والقلب



من الإنصاف أن أصارحك بأنني راض عن عملك تماما !

يستقطر منه مرحا مقدسا من مثل هذا المنطلق يبدأ العاشق سيره، والزواج الموفق،والصداقة السعيدة.هكذا يصادف الحائرون احتمالات ثرية للسعادة فى ظروف غير مناسبة.حين يتفق المكان مثلا ويختلف الزمان ، أو العكس ، مما يقطع بأن السعادة كائنة ولكن السبل ليست ممهدة دائما ، ومن اللعب بين هذا وذاك يجىء الحظ السعيد أو العبث . ولكن لا يجوز أن تنسى الأخطاء كذلك ـــ أخطاء ؟ ـــ أن تنسى سيدة وأصيلة وأنسية .

وبمرور الأيام جعل يقول لنفسه :

ـــ يا قلبى حاذر .

وكالعادة راح يخاف راضية بقدر ما يودها . وكالعادة ترك نفسه للتيار ليفصل فى مصيره قدر مجهول ..

٣٥

وتتابعت الأيام بين عمل فى الإدارة وأحزان فى البيت وأشواق تندلع فى القلب . وبدا أن الكون قد توقف وأن عبد الله وجدى قد رسخ فى وظيفة المدير العام مثل الهرم الأكبر . وقال بحزن :

ـــ لا بارقة أمل .

أين تقع المعجزة هذه المرة ؟!. وها هو لم يبق من السواد فى رأسه

إلا شعيرات معدودات ، وقد ضعف بصره فاستعان بنظارة ، وفقد جهازه الهضمى نشاطه المعهود فعرف العقاقير لأول مرة فى حياته ، وعلاه احديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته أى نوع من أنواع الرياضة . وكان يقول لنفسه :

ــ ما زلت قويا والحمد لله ..

وعلى غير عادة كان ينظر طويلا فى المرآة ويقول :

ــ ما زلت مقبولا !

وفى تلك الأثناء وضع كتابا فى قوانين الموظفين مع تعليق شامل ، وكان للكتاب دوى فى أوساط الموظفين . ورغم تقدمه فى السن ثابر على طاقته الخارقة فى العمل والترجمة ، حبا فيهما ، وهربا من شبح حياته الزوجية وعواطفه المشبوبة المتسمة فى نظره بالنزق والطيش . وقال لنفسه :

ــ فلأعترف بأن ساعة عرض البريد فى الصباح هى نصيبى من سعادة الدنيا !

تبادل تحيات ، تراشق بسمات ، تعليقات مصلحية ، دعابات خفية ، إشارات ثناء لبقة إلى التسريحة أو الحذاء أو البلوزة .

ومرة كان يثنى على تسريحتها قالت :

ــ أفكر فى تقصير شعرى ..

فهتف محتجا :

ـــ كلا .

وابتسمت لحرارة الاحتجاج على شأن لا علاقة له بشئون اللوائح .

ـــ ولكن ..

فقاطعها :

ـــ اتركيه وشأنه .

ـــ ولكن الموضة ..

ـــ لا خبرة لى بالموضة ولكننى أحبه كما هو ..!

وتورد وجهها . تفحصها بعناية فلم يعثر على أثر لاستياء . وأراد أن يستغل الدروس التى تلقاها فى لحظاته السعيدة الماضية فانتهز فرصة وجودها ذات صباح وقدم لها علبة صغيرة أنيقة وذهلت راضية وتساءلت :

ـــ ما هذا ؟

ـــ شىء بسيط لمناسبة كبيرة ..

ـــ ولكن .. ولكن كيف عرفت ..؟

ـــ عقبى لمائة عام ..

ـــ إنه يوم ميلادى حقا .

ـــ طبعا ..

ـــ ولكن .. ما أنبلك .. الحق أنى لا أستحق ..

ـــ الحق أنك لا تحسنين الكلام كما تحسنين التأثير ..

ـــ إنى ممتنة .

ـــ وإنى سعيد .

وتنهد . واستجمع إرادته . ثم أذعن لعواطفه كلية وبلا احتراس وفى اندفاع انفعالى خطير ، قال :

ـــ ما الحيلة ؟.. إنه الحب ..

فغضت بصرها متلقية اعترافه باستسلام قدرى عذب .

ـــ آخر ما يجوز الحديث عنه ، ولكن ما الحيلة ؟

غمق وجهها الأسمر بالدم المتصاعد ولكنها لم تذهب ، جلست مستسلمة كأنها تتطلع للمزيد .

ـــ لست شابا كما ترين .

وصمت مليا ثم استطرد :

ـــ ثم إنى متزوج ..

أجل ماذا يريد ؟، لعله لا يريد أن يواجه الفشل المحتمل أو الموت فى النهاية وحده ، بلا حب دافئ وبلا ذرية !. وعاد يقول :

ـــ ولكن ما الحيلة ؟.. إنه الحب ..

وغلب الصمت مرة أخرى . لم يعد يبالى بشىء . سألها متصنعا الدعابة :

ـــ ما رأيك فى هذه الحالة ؟

ابتسمت وغمغمت بصوت غير مسموع فقال :

ـــ لعلك تتهمينني بالأنانية ؟

فقالت همسا :

ـــ كلا ، لست كذلك ..

ـــ ولا بالخرف ؟!

فضحكت ضحكة خافتة ناعمة وقالت :

ـــ لا تلصق بنفسك ما ليس فيها .

ـــ إنى سعيد برأيك ولكن ما العمل ؟

وساد الصمت للمرة الثالثة فقال :

ـــ أود جدا أن أسمع رأيك ؟

فقالت بجدية :

ـــ الموقف دقيق ومحير ، ولا أحب أن أتجاهل العواطف الإنسانية والرحمة ..

ـــ لعلك تلمحين إلى زوجتى ؟

ـــ هو ما يجب أن تفكر فيه ..

ـــ دعى ذلك لى وحدى فأنا المسئول عنه ..

ـــ حسن .

ـــ ولكنى أريد أن أسمع رأيك فيما عدا ذلك ..

وكانت تمالكت مشاعرها لدرجة لا بأس بها فقالت :

ــ ألم تدلك مناقشتى فى الموضوع على شىء ما يخص المبدأ ؟

ــ إنى سعيد جدا يا راضية ، هذا يعنى أنك تباركين حبى لك ؟

فقالت بشجاعة :

ــ نعم .

فهزته النشوة حتى سكر وقال باستهانة جليلة .

ــ ليكن ما يكون .

ثم بلهجة مستدرة للعطف :

ــ أعترف لك بأننى لم أعرف قط السعادة .

ــ لم أتصور ذلك .

ــ حياة شاقة وزواج تعيس !

ــ لم أتصور ذلك حقا .

ــ لماذا ؟

ــ تبدو لى دائما حكيما وفكرتى عن الحكماء أنهم هم السعداء .

ــ يا لها من فكرة ..

ــ إنى آسفة ..

ــ أما أنا فسعيد بحبك .

وآمن بأنه فاز بأكبر غنيمة فى حياته ، وآمن بأن الحب هو القوة التالية لله سبحانه .

واقتضى سير الأمور أن يذهب معها إلى بيتها بالسيدة زينب .

قدمته إلى عمتها العانس العجوز . ومن بادئ الأمر شعر بأن المرأة غير مرحبة وأن موقفها واضح وحاد . وكانت عصبية وصريحة . ونوقش الموضوع من جميع جوانبه . قالت له :

ـــ طلق امرأتك أولا .

فرفض الفكرة وقال معتذرا :

ـــ إنها مريضة ..

فقالت بحدة :

ـــ أنت عجوز ولا وفاء لك ..

فتدخلت راضية للدفاع والاحتجاج وقالت له :

ـــ لا تزعل من عمتى أبدا ..

وعادت العمة تسأله عما يريد فاقترح زواجا فى السر لفترة قصيرة حتى يتاح له إعلانه ، فصاحت العمة :

ـــ الله .. الله ..

وسألت راضية عن رأيها فأجابت :

ـــ يوجد اتفاق بيننا على ذلك ، لم أسعد به ولكنى لم أرفضه .

فصاحت بها :

ـــ أنت حرة ، ولكنى أرى الأمر كله خطأ وحراما .

فهتفت الفتاة :

ـــ عمتى !

فتحولت إليه وقالت بغضب :

ــ هل تستغل ضعفنا وفقرنا وألا أهل لنا ؟

فقال عثمان غاضبا لأول مرة :

ــ إنى أنموذج للفقر وانعدام الأهل .

فقالت العمة برجاء :

ــ إذن ليلتقط كل منكما رزقه فى مكان غير مكان الآخر .

فقالت راضية بإصرار :

ــ اتفقنا على مكان واحد ..

فقالت العجوز :

ــ لا حيلة لى ولتكن إرادة الله .

وتم الزواج بعد شهر واحد فى بيت العمة . وأعيد تأثيث الشقة لتصلح للحياة الجديدة . وقال عثمان إن حياته سلسلة من الأحلام والكوابيس وأن ذلك الحلم الأخير هو أسعدها جميعا . وكان يلبث فى بيت راضية حتى حوالى منتصف الليل ثم يرجع إلى روض الفرج فلا تسأله قدرية ، فى ملكوتها ، أين كان ولا ماذا يفعل . وعن حكمة قرر تأجيل الإنجاب حتى يعلن زواجه تفاديا من إحراجها ــ زوجته الجديدة ــ فى الإدارة .

ونسى فى سعادته الغامرة كبره وتجمده الأبدى أمام وظيفة المدير العام وقدرية وقال إن الحياة لم تخلق إلا لتكون مسرحا للعجائب تحت العناية الإلـٰهية ..

لأول مرة يخطر فى ملابس أنيقة . بدلة رمادى من الصوف الإنجليزى ، وحذاء إنجليزى كذلك ، أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية بنفسها . ولأول مرة كذلك يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أى وقت مضى . وقال لراضية :

ـــ معك يا حبيبتى سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة ..

وقبلها ثم استطرد :

ـــ سيكون لنا بنين وبنات ..

وتفكر مليا ثم قال :

ـــ الأعمار حقا بيد الله وحده ولكننى من أسرة معمرة ، أسأل الله أن يمد فى عمرنا .

فقبلته راضية وقالت :

ـــ قلبى يحدثنى بمستقبل سعيد ..

ـــ قلب المؤمن دليله ، عندى من الإيمان ما يغفر لى العديد من الأخطاء ، وخدمت الدولة بإخلاص يكفر عن كثير من السيئات ، وعندما تستقر الأمور سأقوم بالحج تجديدا لروحى وجسدى .

أما قدرية فتمادت فى التدهور ، ولكنه تدهور أراحه منها تماما ، ولم يخل قلبه من رثاء لها ولكنه ظل على خوفه من مصارحتها بزواجه الثانى .

ولم ينس أنه يمضى نحو نهاية خدمته بلا أمل حقيقى فى جوهرة العمر ، ولكن الأيام فى جريانها السريع تمخضت عن حدث لم يكن فى الحسبان ، فقد عين عبد الله وجدى وكيلا لوزارة الخارجية ، فجأة وبلا مقدمات وجد عثمان وظيفة المدير العام خالية . أغمض عينيه ، توسل إلى قلبه أن يهدئ من خفقانه ، أمسى كل شىء فى دنياه — عروسه .. أفراحه .. آماله — لا شىء أمام الوظيفة الخالية . تفجر طموحه المكبوت وانقلب إلى العابد القديم فى محراب الرقى المقدس .

وقالت له راضية :

— الجميع يتحدثون عنك بصفتك المرشح الوحيد ..

فابتهل قائلا :

— فليحقق الله الآمال .

ثم بحنان وامتنان :

— الحياة العجيبة تمسح فى لحظة من الأحزان ما يعجز المحيط عن غسلها ، فهى الأم الحنون رغم معاملتها أحيانا القاسية ..

ومضى من فوره إلى الخارجية ليهنئ عبد الله وجدى فاستقبله الرجل مرحبا وقال له مجاملا :

— أعترف لك يا عثمان بك بأننى سررت مرتين ، مرة لتعيينى وكيلا للخارجية ومرة ليقينى بأنك ستحل محلى فى الوزارة .

وغادر عثمان الخارجية ثملا من السرور والأمل .وتساءل ترى هل يندب أولا للوظيفة تمهيدا للترقية أو يبقى حتى تتم الترقية ؟. وكلما مضى يوم عذبه الانتظار . أجل تعذب رغم أن الوزير يقدره والوكيل يعتبر حاميه الأول . ولما نفد صبره ذهب لمقابلة بهجت نور الوكيل فاستقبله الرجل بحفاوة وبادره قائلا :

— كأنى أقرأ فؤادك ..

فابتسم عثمان مرتبكا ولم يجد ما يقوله فقال الوكيل :

— ولكنك لا تقرأ ما فى فؤادى !

فقال وهو يفكر :

— إنى مدين لك بكل خير فى حياتى ..

فابتسم الوكيل وقال :

— المطلوب منك شىء من الصبر ، وسوف تسمع بإذن الله ما يسرك .

غادره ممتنا ومسرورا ولكنه تساءل لِم يطالبنى بالصبر ؟. وقال لنفسه إن الجو يبشر بالخير ولكنه لا يشعر بالطمأنينة الكاملة . وتصبر وعانى العذاب . واستدعاه الوكيل مرة أخرى بعد مرور أسبوع . خيل إليه أن الرجل يعالج نظرة فاترة فى عينيه فخفق قلبه خفقة

شديدة . قال بهجت نور :

ـــ لعلك تتساءل عما أخر ترقيتك ؟!

ـــ فعلاِ يا صاحب السعادة .

ـــ حسن ، أنت تعلم رأيى فيك ، وأضيف إلى ذلك أن رأى الوزير فيك مثل رأيى ..

ـــ عظيم ..

وصمت الوكيل . تبادلا نظرة طويلة . قال صاحب السعادة متسائلا :

ـــ ماذا فهمت ؟

أجاب خامدا :

ـــ ثمة اعتراضات من فوق !

ـــ بالصراحة يوجد شبه صراع ..

ـــ والنتيجة يا صاحب السعادة ؟

ـــ فى اعتقادى أن وزيرنا لن يلين ..

سأل بحلق جاف :

ـــ ما نسبة الأمل فى تقدير سعادتك ؟

ـــ كبيرة جدا ، ضع ثقتك فى الله كما يجدر برجل مؤمن مثلك .. ثقته بالله لا حد لها . لكن دور الشيطان فى الإدارة راسخ منذ القدم . عليه دائما أن يعبر جسرا من المسامير . وتأوه قائلا :

ــ الفرص الباقية نادرة جدا .

فقالت راضية :

ــ لا تحزن ، الدرجة ليست كل شيء فى هذه الدنيا ..

ولكنه حزن ، ورسب الحزن فى أعماقه ، وتقدم فى العمر جيلا كاملا ، وتحولت أحلام الدنيا إلى تراب . واقترحت راضية أن يمضيا يوم العطلة فى القناطر . فاستجاب لاقتراحها العذب ، وأعطاها قياده تجول به فى الحدائق . وهى البسمة السعيدة الوحيدة فى حياته . وقالت ضاحكة :

ــ حكمة قديمة أن ننسى متاعبنا فى أحضان الطبيعة ..

تربعت فوق الحشائش ووهبت حواسها وروحها للماء والخضرة والسماء المنقوشة بالسحائب المبعثرة ، وهو ينظر إليها بإعجاب وافتتان ، وتحدثه عن سحر الطبيعة فيجاملها بالموافقة ، ويجول بنظره فى الآفاق فيرى مناظر لم تجذبه من قبل ولا يشعر نحوها بسحر ما ، أجل إنه منغمس دواما فى الداخل ، فى أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، فى الله ومجده الدنيوى المقــدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا .

ــ أنت تحب الطبيعة ولا شك .

ــ أنا أحبك ..

ــ انظر إلى العشاق !

ـــ ما أكثرهم !

أنامت راحتها على يده وقالت :

ـــ لننس همومنا فى هذا الجو المنعش .

ـــ أجل لننس !

ـــ ولكنك فى الواقع حزين..

تنهد ولم ينبس ، فقالت :

ـــ إنك موظف كبير ، فى الدرجة الأولى ، غيرك كثيرون يسعدون بما دون ذلك بكثير .

أوشك أن يقول لها إن الإيمان الحق نقيض السعادة التافهة ولكنه أمسك ، ثم قال :

ـــ لست كغيرى من الموظفين ، والحيلولة بينى وبين الوظيفة التى أستحقها عمل دنىء فيه اعتداء صارخ على النظام الأخلاقى للدولة ..

ـــ ألست تغالى فى تقديرك للوظيفة ؟

ـــ الوظيفة حجر فى بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الأرض !

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدرى مدى إيمانه ولا مضمونه . قالت :

ـــ إنه لمعنى جديد بالقياس إلىّ ، ولكنى سمعت كثيرا أن روح

الشعب من روح الله !

فابتسم بازدراء وقال :

ـــ لا تحدثينى عن صراعات السياسية ..

ـــ ولكنها الحياة الحقيقية ..

ـــ ما هى إلا صخب زائف ..

ـــ الدنيا من حولنا ..

فقاطعها بنفاد صبر :

ـــ الدنيا الحقيقية فى أعماق القلب ..

وغص قلبه فى صدره عندما تصور إمكان أن تراه « مجنونا » كبعض الحمقى فقال لها متهربا ولائذا بأمل جديد :

ـــ دعينا من الخلاف ..

فابتسمت فى استسلام عذب فاستطرد :

ـــ آن لنا أن نعلن زواجنا ..

فتورد وجهها وتساءلت :

ـــ هل زالت العقبات ؟

ـــ علينا أن نواجه الحياة بشجاعة لنستحق سعادتنا ..

ـــ ما أجمل أن أسمع ذلك ..

ـــ سأصارح زوجتى بالحقيقة ..

وابتسم ابتسامة أشرق بها وجهه الحزين وقال :

ـــ قوة مقدسة تدعونى لتجديد الحياة وإنجاب الذرية الصالحة ..

على مسمع من العمة كرر نواياه الطيبة فقالت العجوز :

ـــ إنك تبدو لى « إنسانا » و « عاقلا » لأول مرة ..

فضحك وأغرقت راضية فى الضحك ، وقال :

ـــ لا خير فى حياتنا ولا معنى بدونك يا عمتى ..

فابتسمت العجوز معلنة عن رضاها فقال :

ـــ لقد قضينا يوما طيبا فى القناطر وآن لى أن أذهب ..

فسألته العمة :

ـــ هل تخبر زوجتك الليلة ؟

فقال وهو يقوم :

ـــ خير البر عاجله .

وخطا خطوة واحدة ولكنه توقف وقد تغير وجهه بصورة ملحوظة فسألته راضية :

ـــ مالك ؟

فأشار إلى صدره ولم ينبس ..

ـــ هل تشعر بتعب ؟. اجلس ..

تمتم وهو يشير إلى صدره :

ـــ ألم شديد هنا ..

هرعت إليه لتسنده ولكنه انحط فوق مقعده وراح فى إغماء .

ولما أفاق وجد نفسه راقدا فوق الفراش لم ينزع من ملابسه إلا الحذاء ورباط الرقبة . ورأى فى الحجرة شخصا جديدا أدرك من فوره ـــ رغم وهنه ـــ أنه الطبيب . وقرأ فى وجه راضية شحوبا وحزنا ، وحتى وجه العمة أعلن عن حزنه .

نظر الطبيب فى عينيه وسأله :

ـــ كيف حالك ؟

فسأله بدوره :

ـــ ماذا جرى ؟

ـــ شيء طارئ لا خطر منه .

ـــ ولكن ..

ـــ ولكن الأمر يقتضى راحة طويلة بعض الشيء .

فقال بقلق :

ـــ أشعر بأننى فى حال طبيعية تماما وأنه بوسعى القيام ..

فقال الطبيب بحزم :

ـــ ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعبا ، إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامى يخلق منها شيئا

آخر ، يلزمك راحة مثالية ، شهر على الأقل .

هتف :

ـــ شهر !

ـــ وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة فى ذلك ألبتة ، وسوف أزورك غدا ..

وجمع أدواته فى حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول :

ـــ احفظ كلامى عن ظهر قلب ..

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه بنظرة مغيظة يائسة . واقتربت راضية حتى التصقت بالفراش وهى ترنو إليه بنظرة باسمة مشجعة وهى تقول :

ـــ بعض الصبر وسيمضى كل شىء بسلام ..

عكست عيناه نظرة قلقة فمست جبينه بأناملها بحنان وقالت :

ـــ لا تشغل بالك ولا تحمل هما ..

ـــ ولكن توجد أمور كثيرة ..

ـــ سأقوم بالواجب فى الوزارة ..

ـــ كيف ؟

ـــ لا مفر من إعلان الحقيقة ، لا عيب فى ذلك ألبتة ..

ـــ يا له من موقف !

ـــ ولابد من إبلاغ زوجتك أيضا !

— موقف أشد .

— علينا أن نواجه الحقيقة وبأى ثمن ..

وقالت العمة :

— اخلد أنت للراحة .

ذلك حق ، وعليه أن يقاوم . إرادة الحياة فيه ترفض اليأس والاستسلام . ليكن ما يكون . والأمر لا يخلو فى النهاية مما يشبه المزاح .

وأغمض عينيه تاركا الأحداث تتشابك فى الخارج بعيدا عنه رغم أنه محورها . وسرعان ما هرع الزملاء إلى البيت لعيادته ، ولما كانت زيارته ممنوعة فقد حمل إليه طوفان من البطاقات . قرأ الأدعية والتمنيات الطيبة . وتذكر سعفان بسيونى وحمزة السويفى ، وعاودته ذكريات لم يرتح لها ، وتساءل كيف حال حمزة السويفى ؟ هل ما زال على قيد الحياة ؟. وثمة موظفون جدد يلحقون اليوم بالعمل لم يعرفوه وربما لن تتاح لهم معرفته ، وفوق ذلك كله تجرى السحب فى السماء وتختفى وراء الأفق ، وقد فهم الساعة فقط مغزى حركة الشمس .

وأغمض عينيه حينا ثم فتحهما فرأى قدرية جالسة على كثب من الفراش ترنو إليه . قرأ فى عينيها الذهول الناعم المعتم غير المبالى بشىء كالقمر المجلل بسحابة شفافة . أدرك أنها تناجى الملكوت وأنه لا

خوف منها . وبدا أنها ـــ إلى ذلك ـــ شحنت بتوصيات طبية إذ سألته بهدوء :

ـــ كيف حالك ؟

فابتسم مرتبكا وقال بامتنان :

ـــ بخير ، شكرا لك !

قالت تعاتب المجهول :

ـــ قيل لى إن نقلك إلى بيتك « الأصلى » غير محمود العواقب ، وكان بودى أن أسهر عليك !

ـــ أشكرك يا قدرية ، خيرك سابق !

ـــ انعم بالراحة حتى يأخذ الله بيدك ..

وهزت رأسها بحكمة غير معهودة ثم استطردت :

ـــ لك العذر ، أنا فاهمة كل شىء ، إنك تريد ولدا ، ولك الحق ، وربنا يحقق رغبتك ..

ـــ أنت طيبة وإنسانة يا قدرية ..

ولاذت بالصمت ثم راحت فى ذهول معبق بشذا الفردوس . شعر بارتياح عميق لانكشاف السر ولتجاوزه منطقة الحرج المليئة الاحتمالات المتفجرة . ولكنه من ناحية أخرى أدرك معنى مرضه كافة أبعاده .

ـــ أى أمل يبقى للدرجة ؟

أجل .. أجل ..

ـــ وأى أمل يبقى للإنجاب ؟

وقال لراضية :

ـــ لم أشعر بنذير تعب ولو من بعيد ..

ـــ الطبيب لم يعجب لذلك ..

ـــ وعرفت المعنى الحقيقى للمباغتة والغدر !

ـــ إنها سحابة سرعان ما تمر وتختفى ..

ـــ الحق أنى آسف لك جدا ..

ـــ أنا ؟!.. إن ما يهمنى هو صحتك وسعادتك .

فنظر إليها بحب وعطف وقال :

ـــ لا أمان فى هذه الدنيا ..

أطرقت حتى أشفق من أنها تخفى دمعة فقال :

ـــ إنى ممتن لك ، أنت نور فى هذه الدنيا التى تمضى بلا منطق ولا وجود حقيقى ..

ـــ املأ قلبك بالأفكار العذبة حرصا عليك وعلى ..

فتنهد وسأل :

ـــ هل ذهبت قدرية بسلام ؟

ـــ نعم .

ـــ خيل إلىّ أن صوتها زمجر وأرعد ، ماذا جرى ؟



هل يقدر لنا أن نحقق أملا من آمالنا ؟

— لا شيء ألبتة ، إنها امرأة مسكينة ..

— أجل . الأخطاء ترتكب بعدد تردد الأنفاس .

— عليك أن تنعم بالراحة الكاملة ..

فرقت نظرته بحنان وسألها :

— هل يقدر لنا أن نحقق أملا من آمالنا ؟

— بمشيئة الله ..

فقال وهو يحدجها بحزن :

— فى لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهرى وتركز أملى فى حلم واحد هو الإنجاب ..

— جميل ، سيكون لنا ذلك ..

— شكرا لك يا حبيبتى ..

— اهدأ حتى تتم سعادتنا ..

— ولكنى أتساءل عن معنى ضياع أمل ذى طبيعة خالدة ؟.. إنه يعنى أن فناء العالم ممكن ، وأنه ربما وقع بكل بساطة ..

— ألا تهب وقتا آخر للتفلسف ؟

— حسن ..

— ألا ترغب فى شىء قبل النوم ؟

فأجاب باسما :

— أرغب فى معرفة حكمة الحياة ..

١٨

وأخيرا استقبل زواره . جاء الزملاء والمرءوسون والسعاة والفراشون . وانعقدت الجلسات بحجرة النوم وطالت وبشرت بالشفاء الكامل . ودار الحديث عن الصحة والمرض ، ومعجزات الشفاء ، ورحمة الله ، ومهارة الأطباء ، وأخبار الوزارة والإدارة ، والبطاقة التى أرسلها الوزير ، والأخرى التى أرسلها الوكيل .

ـــ لِمَ لم يحضر الوكيل بنفسه ؟

ـــ إنه غائص فى العمل حتى قمة رأسه ولكن عذره ضعيف ..

ـــ حسن وما أهمية ذلك ؟

وسرعان ما خاضوا فى الأحاديث العامة ، حفلة الإذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال إلخ ..

وهو قد شارك فى الحديث بقدر وتابعه بقدر أكبر ، وما يدرى إلا وهم يتكلمون فى السياسة !. صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة برموزها الرنانة : الحرية .. الديموقراطية .. الشعب .. الجماهير الكادحة .. المذاهب الثورية .. التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد .. وقال لنفسه إن الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟!

ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية !، حسن .. أى ثورة تضمن له الشفاء وإنجاب الذرية وتحقيق كلمة الله فى الدولة المقدسة ؟!. ولكنه لم يعلن أفكاره ولم يبح بسره لأحد ، إنهم قطيع تافه فى مراعى التعاسة ، يعلقون الأمل على الأحلام لضعف نفوسهم وتهافت إيمانهم وجهلهم أن الوحدة عبادة .

واستشعر دفء الشفاء الوشيك فرغب فى أن يجرب قوته . وجد فرصة فى خلو الحجرة فتزحزح ببطء إلى حافة الفراش ، وأنزل ساقيه بحذر حتى مست قدماه الأرض . غمغم :

ـــ توكلت على الله ..

ووقف مستندا إلى الفراش واطمأن إلى ثقته بنفسه فحرك قدميه بحذر كأنه طفل يمشى معتمدا على نفسه لأول مرة . بصعوبة حملته ساقاه من الضعف وطول الرقاد . تقدم حتى بلغ الباب المغلق ففتحه وواصل السير نحو حجرة الجلوس مضمرا مفاجأة سارة . وباقترابه ترامى إليه صوت ، حوار يدور بين العمة وراضية . تساءلت راضية بحدة :

ـــ من ؟.. من ؟..

فجاءه صوت العمة خافتا على غير العادة :

ـــ أنت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك .

ـــ ما الفائدة ؟

ــ ها هى عقبى الطمع وسوء التصرف !

ــ اصرخى حتى يسمع !

وساد الصمت .

عاد إلى الفراش ذاهلا .

ــ فيم يتحاوران ؟.. أى جناية ؟.. أى طمع ؟.. أى سوء تصرف ؟!

وأغمض عينيه وهو يعض على شفته :

ــ يا ربى المعبود ، ماذا يعنى ذلك ؟، أهو ممكن ؟

لِمَ لا ؟. طالما رغب فى أن يلعب هذه اللعبة فلم ينجح . ومن شدة الشعور بالخيبة ذهل عن وجوده تماما .

يا لى من أحمق !

ودهمته نكسة . هصرته أزمة جديدة . مضت أيام وأيدى الحياة والموت تتنازعه فيما بينها . وبدا أنه مصمم على الاستمساك بالحياة رغم كل شىء ، ورغم قوله لنفسه :

ــ معركة طيبة وخاسرة !

ــ لتكن مشيئة الله ..

وقيل إنه اجتاز مرحلة الخطر ولكن كان من المسلم به من أول الأمر أن رقاده سيطول إلى أجل غير مسمى . ولم يبح بسره لأحد وكان يلقى راضية وهو مغمض العينين . ولم يحقد عليها ولم يغضب

وقال لنفسه :

ــ لا يحق لى أن أكرهها إلا كما أكره نفسى ..

وقال أيضا :

ــ إذا تهيأ لى يوما أن أنجب منها فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهاها الأبيض والأسود ..

وتنهد قائلا :

ــ يا لى من أحمق !.. هكذا يكون سوء الختام وإلا فلا ..

لم يغضب ولكنه فقد الثقة فى المكان .

* * *

وذات مساء دخلت راضية بوجه مبتهج وقالت :

ــ وكيل الوزارة جاء لزيارتك .

ودخل بهجت نور بوقاره المعروف فصافحه ثم جلس وهو يقول :

ــ شد حيلك ..

فقال عثمان بتأثر :

ــ خطوة عزيزة يا صاحب السعادة ..

ــ إنك تستحق التكريم ولا يمكن نسيان أفضالك .

فاغرورقت عيناه امتنانا فقال الوكيل :

ــ فى مكانك فراغ لا يسده أحد سواك ..

ــ إنه كرم أخلاقك الذى يتكلم ، ليس إلا ..

ــ عما قريب ستشفى وترجع إلينا وسوف تجدنا فى انتظارك ، ولقد حملت معى إليك نبأ سعيدا ..

وابتسم الرجل والآخر يرنو إليه بإعياء وذهول ثم قال :

ــ صدر اليوم قرار ترقيتك إلى وظيفة المدير العام ..

استمر ينظر إليه ولكن ببلاهة فقال الرجل :

ــ انتصر الحق والعدل ولو بعد حين ..

فتمتم عثمان :

ــ إنها لبركة من أفضالك .

ــ العفو ، وقد كلفنى معالى الوزير بإبلاغك تحياته وتمنياته لك بالشفاء العاجل .

ــ لمعاليه الشكر والدعاء ..

وذهب الرجل مخلفا وراءه فردوسا من المشاعر ، كأنما كان رسول رحمة من الغيب . وتلقى تهانى راضية وعمتها وهو مغمض العينين. وعاوده شعور بفقدان الثقة فى المكان. وسمعها وهى تقول :

ــ كم أننى سعيدة ..

تذوق فى هدوء نجاحه . إنه صاحب السعادة ، مالك الحجرة الزرقاء ، مرجع الفتاوى والأوامر الإدارية ، وملهم التوجيهات الرشيدة للإدارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله

القادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال لنفسه :

ــ ستتم نعمتك علىّ يا ربى يوم تمكننى من القيام لممارسة السلطان وإعلاء شأنك فى الأرض !

ولكن الطبيب قال له :

ــ ما يهمنى هو صحتك لا وظيفتك !

وإنه لصارم وعنيد ، ولو صح تقديره فستظل الترقية شكلا بلا مضمون . قال له :

ــ المؤمن الحقيقى لا يسعد بالصحة وحدها ..

فقال الطبيب :

ــ لم أسمع بذلك من قبل ..

ــ وربما استنفدت إجازتى فى الرقاد فأحال إلى المعاش !

ــ كل شىء قسمة ونصيب !

وقال لنفسه بوجوم :

ــ لعلهم وهبونى الترقية صدقة وهم يعلمون أن الوظيفة باقية لهم !

ونادى راضية فقال لها :

ــ لا أريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك .

فسألته فى حيرة :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ تمريض مريض واجب ثقيل ..

فوضعت أصبعيها على شفتيه محتجة فنحاه بلطف وقال :

ــ سأنتقل إلى قسم الطبيب المعالج بالمستشفى .

واحتجت راضية ولكنه أصر . وعرض فكرته على الطبيب فوافق عليها ونقل إلى حجرة خاصة . ومهما يكن من شأن الزيارات فقد عاد إلى وحدته كالزمان الأول .

ومضت الأيام فى مسارها الأبدى ، وكاد أن ينقطع ما بينه وبين العالم الخارجى ، وكفت قدرية عن زيارته بسبب التدهور والمرض ، واستسلم لقدره فلم يعد يبالى بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون . وتحمل الساعات التى تقضيها راضية إلى جانبه بضيق شديد ولكنه احتفظ بأحزانه لنفسه ، وآمن فى الوقت نفسه بعدالتها . وظل على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعال . وقال إن العجز أحيانا عن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام أن الإصرار على المضى نحوه هو المسئول عن وجود النبل والمعنى فى الحياة .

وكره كلمات التشجيع الجوفاء ، وسلم بأن تقلده للوظيفة الجديدة حلم ، كما سلم بأن نهوضه لإنجاب ذرية حلم آخر ، ومع ذلك فمن يعلم ؟!

وما يحز فى نفسه أن كل شىء يمضى فى سبيله دون مبالاه به .

التعيين والترقى والإحالة إلى المعاش ، الحب والزواج وحتى الطلاق ، صراعات السياسة وشعاراتها المحمومة ، تعاقب الليل والنهار ..

وها هى نداءات الباعة تنذر باقتراب الشتاء .

ولعله من محاسن الصدف أن القبر الجديد قد حاز رضاه تحت ضوء الشمس .

رقم الإيداع ٤٧٩٨

الترقيم الدولى ٣ — ٣٠٨ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٤٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه